

هـ. فان براج

حكمة الصين



ترجمة: موفق المشنوق

道義孝禮仁德陽



حكمة الصين

- تأليف: هـ. فان براج
- ترجمة: موفق المشنوق
- الطبعة الأولى ١٩٩٨
- جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
- الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
- سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٢٣٢٠٢٩٩
- فاكس: ٢٣٣٥٤٢٧ - تلكر: ٤١٢٤١٦
- التوزيع في جميع أنحاء العالم:
- الأهالي للتوزيع
- سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
- فاكس: ٢٣٣٥٤٢٧ - تلكر: ٤١٢٤١٦

١ - ٩٥١ ب ر ا ح ٢ - العنوان ٣ - براج
 ٤ - المشنوق ع - ١٩٩٨/٨/١٢١٦ مكتبة الأسد

هـ. فان براج

حكمة الصين

ترجمة: موفق المشنوق

الأهالي

تقديم

والإنسان المهذب يتجنب وضع قدمه حتى على ظل جاره
حكمة صينية.

لقد بزغ، من جديد، نجم الصين كنولة كبرى منذ خمسين عاماً، ومنذ ذلك الوقت، يتصاظم، يوماً بعد يوم، دورها وتقلها وتفوذها وتأثيرها على الأحداث العالمية وفي تقرير مصير الشؤون الدولية. والصين هي أكبر دولة مرشحة لأن تكون أحد أقطاب العالم الكبار في القرن القادم. فما هي القيم الكبرى والمبادئ السامية والمثل العليا التي تحكم فكر وسلوك أكثر من مليار ومئتي مليون صيني؟.

إن هذا الكتاب إذ يحمل جواباً على هذا التساؤل، فهو يفتح، في نفس الوقت، نافذة على كنز من الحكمة والجمال تراكم عبر أكثر من خمسين قرناً وذلك لكل من يريد أن يعرف منه.

يتألف الكتاب من لحة سريعة عن تاريخ الفلسفة والآداب الصينية ومن ثمانية فصول، كل فصل منها مكرس لمفهوم أساسي للثقافة الصينية العريقة: (١) الطاو أو الكائن في حد ذاته. (٢) اليانغ والين أو القطبية. (٣) الـ ي | أو للملازمة أو الطبيعة الجوهرية. (٤) الخيار أو ير والدين. (٥) الـ لي | أو الطقوس أو آداب السلوك. (٦) الجن أو الإنسانية. (٧) الـ تي | أو فن العيش. (٨) الـ و | أو الفعل بعدم الفعل.

الترجم

موجز تسلسل الأحداث التاريخية

تاريخ	تقافة
العصر الأسطوري	إي كينغ / أصل أسطوري
	أباطرة أسطوريون
	سلالة
١٩٨٩ - ١٥٥٨ ق.م	سلالة غيا
العصور القديمة	
١٥٥٨ - ١٥٥٠ ق.م	سلالة / شانغ / أو / ين
١٥٥٠ - ٧٧١ ق.م	سلالة / تشيو / (الغريين) للملك / وان / للملك / وو / دوق / تشوه / ملوك محاربون
	مو / القرن العاشر ق.م
	شوان ٨٢٨ - ٧٨٢ ق.م
	يو ٧٨١ - ٧٧١ ق.م
٧٧٠ - ٢٥٦ ق.م	سلالة / تشيو / الشرقيين
٤٠٧ - ٢٢٣ ق.م	مملكة تشي يو
القرن الخامس - القرن الثالث ق.م	ممالك متحاربة (البرايرة مان)
	يانغ تشو
	ريتاغ وغرف
	تشو - لي

القرن الرابع - القرن الثالث
ق.م هان فوتو
مدرسة القوانين
تشوانغ - تسو
رثاء بلد تشي - يو
٣٧٢ - ٢٨٨ ق.م مانشيوز
٢٠٠ - ٢٣٠ ق.م كيون - تسو

القرن الثالث ق.م لي -

تسو(٩)

الإمبراطورية القديمة

٢٢١ - ٢٠٧ ق.م

سلالة تسي اين تشين خوفغ

الامبراطور الأول

٢٢٠ - ٢١٠ ق.م

كاوتسو (٢٠٦ - ١٩٥)

١٤٥ - ٨٥ سماتشان

سلالات هان وان - تي (١٨٠ - ١٥٧)

الأوائل

٢٠٢ ق.م - ٨ م

وو - تي (١٤١ - ٧٨)

٢٢ - ٨ م

وانغ بانغ (للخصب)

القرن الأول ميلادي لي كي

سلالة هان الثانية قوانغ - وو - تي (٢٥ -

٥٧)

٢٥ - ٢٢٠ م

٦٥ م دخول البوذية للصين

مينغ - تي (٥٨ - ٥٧)

١٠٥ م اختراع الورق

سلالة وي (٢٢٠ -

٢٦٥) في لويانغ

٢٢٠ - ٢٨٠ م

للممالك الثلاثة

١٧٥ الكتب الخمسة للمنحوتة

سلالة وو (٢٢٧ -

على الحجر

٢٨٠) في نانكين

سلالة خان (٢٢١ -

٢٦٣) في سوتشوان

سلالة تسين الغربية

٢٦٥ - ٣١٦

الغزوات البربرية		٣١٦ - ٧٨١
فني الشمال	خون تشاو	
	(سلالات بربرية)	
المنغول الأوائل		
فو جانتع		
وي الشمالي		
بي تشي		
بي تشو		
فني الجنوب		
	(سلالات وطنية)	
تشين		٣١٨ - ٤٢٠
سونغ		٤٢٠ - ٤٧٠
٣٨٤ - ٤١٣	ترجمات	
كوما راخيقا		
للمؤلفات البوذية الهندية		
٥٢٠ بوذي هارما في الصين		
تشي		٤٧٩ - ٥٠٢
ليانغ		٥٠٢ - ٥٥٦
تشي ين		٥٥٦ - ٥٨٩
الامبراطورية الوسطى		
سلالة شوي	وان تي (٥٨٩ - ٦٠٤)	٥٨٩ - ٦١٨
	يانغ بي (٦٠٥ - ٦١٧)	
سلالة تانغ	قو - تسو (٦١٨ - ٧٠١ - ٧٦٢ لي باو (٦٢٦)	٦١٨ - ٩٠٧
	ناي تسونغ (٦٢٦ - ٧١٢ - ٧٧٠ توفو (٦٤٩)	
	تو تسونغ (٦٤٩ - ٧٨١ تأثير نسطوري (٦٨٤)	
	الإمبراطورة /او/ ٨٤٥ توسع البوذية (٦٩٠ - ٧٠٥)	
	خاتع تشونغ (٧١٢ - ٧٥٦) الكتب الأربعة سماقوانغ	

١٠٠٤ سلام	سلالة سونغ مع تاي تسو (٩٦٠ - ٩٧٥)	١٠١٩ - ١٠٨٦ للدرسة الكتفوشيوسية الجديدة
غزوات بربرية جديدة	نخيتان	
١١٢٥ - ١٢٣٤	سلالة كين في الشمال (تونغوس)	
١١٢٧ - ١٢٧٩	سلالة سونغ في الجنوب	
١١٥٥ - ١٢٣٧	جنكيز خان	
١٢١٥	دخول المغول بكين	
١٢٦٠ - ١٣٦٨	سلالة يوان / تميد الوحدة / يي لي منغوليه / (١٢٦٠ - ١٢٩٤)	١٢٥٣ رحلة / روسبروك / ١٢٧١ رحلة / ماو كو بولو /
الصين الحديثة:		
١٣٦٨ - ١٦٤٤	سلالة مينغ	غونغزو (١٣٦٨ - ١٣٩١) القرن الرابع عشر. رواية الممالك الثلاثة
١٦٤٤ - ١٩١١	سلالة تشي اينغ	كانغ - شي (١٦٦٢ - ١٧٢٢) دائرة الطيشور
	تشان لونغ (١٧٣٦ - ١٥١٧)	البرتغاليون في كانتون (١٧٩٦)
	تولغ شوه (١٨٧٥ - ١٩٠٨)	١٧٠٤ قصة القيثارة
		١٧٢٠ الاستيلاء على / الهاسا /
١٨٢٩ - ١٨٤٢	الحرب الصينية اليابانية	القرن الثامن عشر: الموسوعات الكبيرة
١٩٠٠		١٧١٩ - ١٧٦٤ حلم في الجنح الأحمر
١٩١٢	الجمهورية الصينية	
١٩٤٩	جمهورية الصين الشعبية	

لمحة سريعة عن الفلسفة والآداب الصينية

إن أقدم النصوص الصينية لها نفس القدر من الأهمية الفلسفية والأدبية لأن المادتين لم تكونا منفصلتين بعد. ويعتبر كتاب الأغاني الكلاسيكي /شي كينغ/ وثيقة ذات قيمة كبيرة ولكنها، ببساطتها المباشرة، تعكس العالم الروحاني للصين القديمة.

يبرز الصينيون، بصورة تقليدية، أربع مجموعات من الكتب:

- *الـ/وو - كينغ/، الكتب الكلاسيكية الخمسة. أضيف إليها فيما بعد الكتب الأربعة.*

- *الحوليات أو الأخبار التاريخية.*

- *المعلمون.*

- *الآداب.*

الرقم الكونفوشيوسية:

يحتوي *الـ/وو - كينغ/* على الكتب الكلاسيكية الخمسة أو الشرائع التي يعترف بها دين الدولة الكونفوشيوسية.

يُذكر بصورة عامة، في المقام الأول، *الـ/إني كينغ/* الذي مستحدث عنه في الفصل الثاني. إن رمز *الـ/إني كينغ/* أو كتاب التحولات هو دائرة مبدئي القطبية: *الـ/يانغ/* (النور، العنصر الذكري) و*الـ/ين/* (الظلمة، أو العنصر الأنثوي). وهذه الدائرة محاطة بشمانية تزييفات^(٥) تمثل العناصر الأساسية.

أما كتاب التاريخ الكلاسيكي */شوكينغ/* فهو ذو طابع مختلف تام الاختلاف ويتألف من مجموعة وثائق متنوعة التواريخ تتعلق أحداثها بأحداث القرن السابع قبل الميلاد في حين أن أقدمها يعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. لقد ترجم */كوفورر/* *الـ/شوكينغ/* إلى الفرنسية كما ترجم إليها أيضاً *الـ/شي كينغ/* و*الـ/تشونين تسي نيو/*

(٥) التزييفات: ثلاثة خطوط فوق بعضها البعض يستعملها العرافون الصينيون.



وال/لي كي/ وال/لي لي./ والكتب الأربعة.

يعتبر كتاب شرائع لياو/ الذي يشكل جزءاً من ال/شي كينغ/ أقدم وثيقة صينية. تؤكد التقاليد أن الإمبراطور لياو/ حكم أكثر من مئة عام من ٢٣٥٧ - ٢٢٥٥ قبل الميلاد. وغني عن القول أنه يتوجب علينا أن ننظر حذرين إزاء التقاليد من هذا النوع، ولكن النقد الحديث يميل للإعتقاد على أنها تحتوي جزءاً من الحقيقة. وهذا ماحدث بالنسبة للتقاليد المختلفة اليونانية والتوراتية. ولقد كشفت التنقيبات الأثرية على أنها أقرب إلى الحقيقة من الفرضيات النقدية الأكثر إعداداً.

كان /كتفوشيوس/ يبدى إجلالاً كبيراً لهذا الإمبراطور وقال عنه: كان لياو/ ملكاً عظيماً. ما من شيء يرتفع إلى أعلى من السماء، ولكن لياو/ كان منسجماً مع نفسه. وكانت فضيلته من العظمة بحيث أن الشعب لم يجد اسماً لوصفها.

يتحدث كتاب /شوكينغ/ عن الإمبراطور لياو/ بالعبارات التالية (يعود تاريخ هذا المقطع إلى أكثر من أربعة آلاف عام):

إذا مدرستنا سلوك الإمبراطور الأسبق لياو/، نجد أن لقب الفاضل يستحقه عن جدارة. إذ كان يسهر باستمرار على القيام بواجبه خير قيام. كان نافذ البصر، ثاقب الذهن. كان ذا فضيلة تامة وذا حكمة نادرة كان ذلك طبيعياً وبلا تصنع. كان رزناً ومجلاً ويعرف التراجع والتعاطف. بلغ نفوذه وشهرته حتى أقصى حلود الإمبراطورية

وحتى آخر حدود السماء والأرض. كان يُهذب، على أكمل وجه، فضائله الطبيعية. وبهذه الطريقة جعل الوثام يسود في صفوف طبقات عائلته التسع وعندما ساد الوفاق في صفوف عائلته، نظم تنظيمًا رائعاً جميع عائلات إماراته الخاصة. وعندما سطعت الفضيلة في صفوف جميع عائلات إماراته الخاصة، أحل الاتحاد والوفاق بين سكان جميع الإمارات. حيثُ غُسن العرق ذو الشعر الأسود (سكان جمع الإمبراطورية) وعاش في إنسجام كامل.

يدل هذا النص القديم على أن فكر الأباطرة والفلاسفة مترسخ في حكمة القدماء. ولم يكل /لاو - تسو/ واكتفوشيوس/ عن ترديد ذلك. أما كتاب /شي كينغ/، كتاب القصائد الغنائية والأغاني فهو كتاب رائع الجمال. وقد ترجمه/ كوفور/ ترجمة رائعة. إن العديد من قصائد هذه المجموعة مشهورة وهذه قصيدة على سبيل المثال:

صباح الديك

- صباح الديك
الماندراڤ يملؤون الآن القصر.
- هنا ليس بعد بصياح الديك
ولكن ذبابة تعطن.
- النور يظهر من الشرق.
وكل البلاط هناك!
- هنا ليس بيزوغ الشمس،
ولكن ضوء القمر.
- طارت الحشرات.
ومعك أحب أن أحلم أكثر فأكثر.
إني لا أبغضك إطلاقاً،
ولكن الماندران^(هـ) سيعدون عما قريب.

(هـ) للماندران: موظف كبير في إمبراطورية الصين القديمة.

لقد قارن البعض بداية هذا الحوار بمشهد العشاق في مسرحية روميو وجوليت لشكسبير.

وهذه قصيدة أخرى تدل على القوة التعبيرية لقصيدة ألفية:

شكاة جندي

تسلقت جبلاً وعراً. بلا أشجار وبلا حضرة
لألقي نظرة على بيت أبي،
وبلا لي أسمعهم يقول:

- يا للأسف! ابني في خدمة الأمير؛
لا يستطيع أن يستريح لا ليلاً ولا نهاراً.
إن كان حذراً، عاقلاً سيعمل على العودة
ولن يتأخر.

تسلقت الجبل للزین بالأشجار والحضرة
لألقي نظرة على بيت أمي.
ويبدو لي أنني أسمعها تقول:
- وأأسفاه! ابني يخدم الأمير
إن كان معنياً بنفسه ويقظاً،
سيستطيع العودة:

يجب عليه أن لا يبقى بعيداً عنا.

تسلقت الجبل العالي
لألقي نظرة على بيت أخي الأكبر،
ربما يقول في هذه اللحظة:

- يا للأسف! أخي يقوم بواجبه
في خدمة الأمير؛

يتعب ليلاً ونهاراً.

يجب قبل كل شيء أن يفكر بالعودة

وأن لا يموت بعيداً عنا.
وهذه قصيدة أخرى:

ريح الشمال

ريح الشمال، أية برودة!
مطر وثلج، أية زوينة!
بحنان، أهو! إن كنت تحبيني،
الأيدي مضمومة، لنذهب معاً،
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!
ريح الشمال، أية عاصفة!
مطر وثلج، أي إعصار!
بحنان إن كنت تحبيني،
الأيدي مضمومة، لنرحل معاً.
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!
ما من شيء أشقر مثل الثعلب!
ما من شيء أسود مثل الزاغ!
بحنان، أهو! إن كنت تحبيني
الأيدي مضمومة، لنركب العربة
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!
وهذه بعض الأبيات الهجائية
جبال الجنوب، مثل عرف الديك،
عالية في السماء، تنصب صخوراً ضخمة.

آا ياسيد /ين/ القاسي الجليل،
كل الشعب يوجه أنظاره إليك،
القلوب حزينة، فتكتها النار
ما من أحد يجزؤ على الضحك أو حتى على الشريرة.
إقطاعك، كل شيء فيها سينهار،
لماذا لا تذهب لتتظر إليها؟

أما كتاب الشرائع الرابع الدلي - كي/ فهو عبارة عن مجموعة منتخبات من التعاليم الشعائرية. وتُعزى التقاليد لكنفوشيوس القيام بمراجعتها كاملة. يُظهر هذا الكتاب، الذي هو في الحقيقة أكثر من مؤلف عن آداب السلوك، العلاقة الوثيقة القائمة بين الدلي/ (التهذيب) والدلي/ (الطبيعة الجوهرية) والد/خياو/ (بر الوالدين). تكشف التوصيات، في هذا الكتاب، بالنباتات والحيوانات والناس عن عمق إحترام التوازن الكوني:

يوجد أجل لزوال كل شجرة وكل حيوان، فمن يقطع شجرة قبل أجلها المحدد يرتكب إثم الإخلال بالتقوى.

أما كتاب الشرائع الخامس فهو /تشووين/ حوليات رباغ وخرف دولة الد/لو/ (انظر الفصل الخامس، ، فقد ترجمه /كوفورور/ الذي ترجم أيضاً الكتب الأربعة، لمذهب كنفوشيوس و/مانشوز/ نسبت ثلاثة من الكتب الأربعة لكنفوشيوس، جزئياً أو كاملة، إلا أن تمريرها يمكن أن يكون، في الواقع، من عمل أتباعه، كما هو الحال بالنسبة لبوذا وسقراط والمسيح.

والكتب الأربعة هي: الد/لونغ يوي/ (حوارات وأحاديث)؛ الد/ تاهيو/ (الدراسة الكبرى)؛ الد/تشوانغ يونغ/ (البيئة الدائمة)؛ وأحاديث مانشوز.

تشكل هذه الكتب التسعة /الرقم الكنفوشيوسية/ وهذه هي القائمة بشكلها الأكثر إتشاراً في الغرب.

الكتب الخمسة:

- كتاب التحولات.

- كتاب التاريخ.

- كتاب الأغاني.

- بحوث حول الطقوس.
- الرباع والخرف.
- الكتب الأربعة:
- أحاديث كنفوشيوس.
- الدراسة الكبرى.
- البيقة الدائمة.
- أحاديث مانشوز.

التاريخ:

يُعتبر كتاب /شي كي/ لـ/سماتشان/ (١٤٥ - ٨٥ قبل الميلاد) من بين الكتب الأكثر شهرة. يبالغ هذا الكتاب تاريخ الصين منذ الأزمنة الأسطورية وحتى عام /١٠٠ قبل الميلاد ويحتوي علي مالا يقل عن مئة وثلاثين سفرًا. ولقد وصلنا جزء كبير منه. وبذلك نمتلك مصدراً قيماً للمعلومات. لقد ترجم/ إدوارد شوفان/ مقاطع واسعة منه. إن إقتضاب الإسلوب عند كاتب الحوليات هذا يدفعنا إلى القول بأن المؤرخ اليوناني /تاسيت/ بالمقارنة معه كان مطبئاً.

بعد /سماتشان/، يجب ذكر /سماقرانغ/ والأدب الصيني يزخر بالمؤرخين الرسميين.

المعلمون والكلاسيكيون:

يجب اعتبار الفلاسفة الذين سبقوا الكلاسيكيين في عداد المعلمين /تسو/. أما الكلاسيكيون فهم الطاويون والكتفوشيوسيون المجدد /بعد عام ١٠٠م/، الموهيون المشرعون، والسفسطائيون. إن الكلاسيكيين الأوائل هم كنفوشيوس وأتباعه المباشرين: مينغ تسو، فوتسو (القرن الثالث قبل الميلاد): ولقد اهتم هذا الأخير بالتربية والتعليم بصورة رئيسية.

لاو - تسو:

إن معلم المعلمين هو /لاو تسو/ الذي يعتبره أتباعه أعظم بكثير من الكلاسيكيين.

وينسب إليه كتاب /طاوتي كينغ/ الذي يمكن إيجاز حكمته كاملة في هذه الحكمة:

أولئك الذين يتكلمون لا يعرفون

أولئك الذين يعرفون لا يتكلمون

يوجد العديد من الترجمات لكتاب /طاوتي كينغ/.

تشوانغ تسو:

بعد /لاو - تسو/ مباشرة، يجب ذكر /تشوانغ تسو/ (الفصل السابع) إلا أننا نتقل هنا هذين الحوارين الرمزيين له.

الحوار الرمزي الأول:

سأل /تونغ كو تسو/ تشوانغ - تسو:

- أين نسمي المبدأ؟

- في كل مكان، قال تشوانغ تسو.

- وأدنى مرتبة؟ سأل تونغ كو تسو.

- في قشة العشب.

- أدنى أكثر؟

- في كسرة الآجرة.

- أدنى أكثر؟

- في هذه المذبة وفي ماء المزابل، قال /تشوانغ تسو/.

وعندما كف /تونغ كو/ عن طرح الأسئلة، عندئذ تناول /تشوانغ - تسو/ الكلام قائلاً: «يا معلم، إن الاستجواب على النحو الذي اتبعته لتوك لا يؤدي إلى أي شيء. إن هذه الطريقة ناقصة للغاية وتشبه طريقة خبراء السوق الذين يحكمون جزيئاً على سمعة الخنزير وذلك بالضغط بالقدم عليه (يترك القدم أثراً يكون عمقه بقدر سمعة الخنزير). لا تسأل إن كان المبدأ في هذا أو ذاك. إنه في جميع الكائنات. ولهذا يوصف به العظم، بالأسمى، بالكامل بالكوني، بالتام، جميع هذه الصفات تنطبق على نفس الحقيقة الواحدة: الوحدة الكونية.

الحوار الثاني:

كان /تشوانغ تسو/ و/خوي تسو/ يستريحان على جسر ساقية. انظر كيف يقفز السمك! هذه هي متعة السمك. قال /تشوانغ تسو/:

- أتيلست بسمكة، قال /خوي - تسو/. كيف إذن تعرف ماهي متعة السمك؟
- أنت لست أنا، قال /تشوانغ تسو/: كيف تعرف أنني لا أعرف ماهي متعة السمك؟

- أنا لست أنت، قال/خوي - تسو/. وبالتالي لا أعرف كل مآثره أو لا تعرفه، وأنا أوافق على ذلك. لكن، على كل حال، أعرف أنك لست سمكة، ومن المؤكد، ،
بالتالي، أنك لا تعرف ماهي متعة السمك.

- لقد وقعت بالفخ، قال /تشوانغ - تسو/: لنعد إلى سؤالك الأول. لقد سألت:
«كيف تعرف ماهي متعة السمك؟» بهذه الجملة، سلمت أنني أعرف ذلك، وإلا لا
سألتني. «كيف لكان تعرف بأنني لا أعرف؟». والآن كيف عرفت ذلك؟ عن طريقة
الملاحظة المباشرة على جسر الساقية.

لم يكن التوضيح «عن طريق الملاحظة المباشرة» والذي يمكن ترجمته أيضاً: «عن طريق متعني أنا» موجوداً في النص الأصلي. ولقد أضاف المفسرون هذه الكلمة لكي يفسروا معنى رمز هذا الحوار. وعلى حسب اعتقادنا: كان /تشوانغ - تسو/ يعني أن الاتحاد الصوفي مع السمك كان أكثر كمالاً من الاتحاد الواعي مع /خويتسو/. وعبرة «أعرف ذلك على هذا الجسر» تعبر عن هذا الاتحاد. ولكن لا يكون /تشوانغ - تسو/ صوفياً إلا إذا نفى الاتحاد مع كل إنسان. لأن هذا الاتحاد ليس واعياً: «سؤالك كان يبرهن أنك كنت تعرف أنني أعرف». إن الفكر يعزل بدلاً من أن يوحد ويفصل بين الكائنات، هذا في حين أن العاطفة توحد الإنسان بالحيوانات. وعلى حسب /تشوانغ - تسو/، إن فة «اللذة» أكثر جوهرية من فة «الإنسان» إذا شعر كائنات بالفرح، فهما مرتبطان به ولا يكونان متحدين إلا إذا شارك الإثنان به.

وأخيراً هذا رمز ل/لي تسو/ يُنسب أحياناً ل/تشوانغ - تسو/. ويعتقد العديد من الصينيين^(٥) أنهما شخصية واحدة. فإسماهما متماثلان. لذا يمكن، على الأقل، التحدث عن نفوذ أكيد.

(٥) صينوي: عالم بالحضارة الصينية.

سارق الفأس

لم يعثر رجل على فأسه، اشتبه بأن ابن جاره قد أخذه منه، فشرع بمراقبته، فكانت مشيته نموذجية لسارق الفأس. وكان الكلام الذي ينطق به لا يد أن يكون كلام سارق الفأس. وكانت كل مواقفه وتصرفاته تعضخ الرجل الذي سرق الفأس. ولكن، وبصورة غير متوقعة، عثر الرجل فجأة على فأس بينما كان يقلب التراب.

وفي اليوم التالي، عندما نظر من جديد إلى ابن جاره. لم يكن يُظهر شيئاً لا في مشيته ولا في هيئته ولا في سلوكه قد يوحي بأنه سارق الفأس.

يانغ تشو:

كان /يانغ تشو/ فوضوياً، وتلذذ بنقد المجتمع بدعاية تهكمية ولاذعة:

يقول /يانغ تشو/: من بين ألف إنسان، ما من أحد يعيش حتى مئة عام، ولكن لنفترض أنه يوجد من بين الألف واحد معمر مئوي، فإنه يقضي جزءاً كبيراً من حياته في عجز الشباب الأول وفي هرم أواخر الشيخوخة ويستهلك أيضاً جزءاً كبيراً من عمره في النوم ليلاً والشرود نهاراً، ويصبح جزءاً آخر عقيماً من الحزن والخوف.

ولا يبقى إلا جزء ضئيل للعمل والمتعة. ولكن ما الذي يجعله يعمل؟ ما الذي يعطيه المتعة؟ هل جمال الأشكال والأصوات؟ هذه أشياء تفسجر وتدمم... هل القانون بمكافاته وعقوباته، بامتيازاته وقضائحه؟ هذه دوافع ضعيفة جداً: هل اللوم مخيف للغاية؟ وهل لقب بعد الوفاة مرغوب أشد الرغبة؟ هل يجب من أجل القليل جداً التخلي عن ملذات العيون والأذنان، وكبح الجماع داخلياً وخارجياً؟ هل أقل قساوة أن يقضي المرء حياته في الحرمانات وتحت الضغط من أن يقضيها في السجن وفي السلاسل؟ لا دون شك، ولذلك كان القدماء الذين كانوا يعرفون أن الحياة والموت هما حالتان طارئتان متناوستان وعابرتان، يتركون غرائزهم تعبر عن نفسها بحرية ولا يكبحون شهواتهم الطبيعية ولا يحرمون أجسامهم من ملذاتها، إذ لم يكونوا يبالون إطلاقاً بالديح واللوم.

من الشرعويين إلى الماركسيين:

ستحدث في الفصل الخامس عن الشرعويين وعن /هان - فيه - تسو/ الذي فكره، من نواح عدة، يُذكر بفكر الماركسيين الصينيين في يومنا هذا.

ويُعتبر الفيلسوف الثوري /الوسين/ المتوفي في عام ١٩٣٦ رائداً للماركسي اليوم. ولقد ترك التراث من الأقوال المأثورة التي تذكرنا أحياناً بـ/فولتير/ و/برنادشو/ وهذه بعض أقواله على سبيل المثال:

أعتقد أنه من الصعب القول عما إذا كان يوجد أو لا يوجد شيء يشبه الأمل. فالأمل يشبه الطريق الرقيق فهو لا يمشق أبداً في هذا الموضع، ولكن لكثرة ماسار عليه الناس، فإنه في نهاية المطاف، شق نفسه بنفسه.

يعشق الشعب الصيني الحلول الوسط. فإذا ما قيل للصينيين: «هذه الفرقة مظلمة جداً، ينبغي فتح نافذة في الجدار فإنهم يحتجون ويرفضون بقوة. ولكن إذا ما قيل لهم، لنزيل السقف، شرعون في البحث معاً عن حل وسط وينتهي بهم الأمر. باقتراح: لنفتح نافذة في الجدار.

قال لي أحد أصدقائي:

«السؤال لا يمكن في معرفة عما إذا كنا قادرين على الحفاظ على تراثنا الوطني. ولكن السؤال هو بالأحرى ما إذا كان تراثنا الوطني قادراً على الحفاظ علينا، إن الحفاظ على أنفسنا بأنفسنا هو ما يهمهم. ومعرفة إن كان التراث يستطيع أن يخدم أم لا يهم أكثر من معرفة إن كان وطنياً أم لا.

هو - تسو:

/الموهيون/ هم أتباع /مو - تي/ أو /مو - تسو/ الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. كان /مو - تسو/ رسول المحبة الكونية ويقارن بالمسيح أو بـ/فرانسوا دي أسينز/. فقد كان يثور ضد التمييز الشعائري الذي يفرضه الـ/لي/. بالنسبة له، يجب أن لا يشعر الإنسان أنه يعيش وسط الجماعة فقط مع عشيرته أو مع عائلته. ولكن يجب عليه أن يفتح حبه للجميع. فالسماء لا تميز بين الناس وتوفر للجميع ولكل فرد مطرها وشمسها. كان /مو - تسو/ يدين الحروب والمؤسسات الإقطاعية.

لم يكن /مو - تسو/ يشارك رأي كنفوشيوس ومفاده أن الضرورة تصنع القانون. إذ

ذات يوم، كان كنفوشيوس يتألم من التضور جوعاً، فاستولى على الطعام دون أن يهتم بأصله. وبعد ذلك شرع بالتقيد بجميع القواعد وقال ميرراً فعلته في ذلك اليوم: «كان هدفاً الوحيد هو البقاء على قيد الحياة. أما اليوم، فهدفتنا مراعاة العدالة. وقد رد /مو- تسو/ على ذلك بالقول: عندما كان جائعاً، كان دون وازع فيما يخص أصل الطعام. وما أن شبع حتى استأنف المناقش خطبه حول العدل والظلم. هل يمكن أن يتصور المرء شيئاً أكثر غباء وأكثر وضاعة وأكثر غروراً من ذلك؟

والجدير بالذكر أننا نجد آراء قريية جداً من آراء /مو- تسو/ عند كنفوشيوس نفسه في مثاليته الطوباوية للعدالة الكبرى. إلا أن /مو- تسو/ يريد أن يحقق مثاليته الطوباوية على الفور. ولهذا أقرض أنه تأثر بالجالية اليهودية في /كاي فتح فو/ مثلما أقرض أن /لاو- تسو/ نفسه قد تأثر بها.

يرفض كنفوشيوس أن يطلب المستحيل من الإنسان ويدعو أنه أفضل من /مو- تسو/ كمعلم لحضارة جماهيرية مثل الحضارة الصينية التي هي بالضرورة حضارة جماهيرية. ولكن هذا لا يمنع من أنه كان هناك دور لـ /مو- تسو/ يقوم به في هذه الحضارة ولقد قام به فعلاً.

السفسطائيون والكنفوشيوسيون الجدد:

لقد أثر السفسطائيون على تطور المنطق الصيني أما الكنفوشيوسيون الجدد فهم مايزالون ينتشرون إلى يومنا هذا. لقد شاركوا في مؤتمر هونولولو «شرق - غرب» وتمكن أهميتهم الحالية في رغبتهم بزعزعة السكونية في الثقافة الصينية التقليدية وذلك بإضافة قيم فلسفة التاريخ لها.

الشعر:

تحتوي الكتب الأربعة بصورة رئيسية على الأعمال الشعرية وتمثل علم الآداب. ولقد أستبعد منها، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، النثر والمسرح. جمعت القصائد الشعرية على شكل مختارات (من هنا جاء اسم كي. منتخبات). وفيما بعد أدخل فيها المؤلفات النثرية. ولكن الشعر يشكل فيها الأساس. وفي الصين القديمة، كانوا يقرؤون القصائد أمام حلقة من الأصدقاء الحميمين قبل أن ينشروها ولم تكن تُضم إلى المختارات إلا إذا نالت الموافقة الجماعية ولذا ظلت الكثير منها

مجهولة الهوية ولهذا السبب أيضاً نقدر بإعجاب أنه تم التمكن من انتزاع عشرة آلاف قصيدة للشاعر الكبير /لي تاي باي/ أو /لي باو/ من عالم النسيان، ولكن ألم يكن يقول عن نفسه؟

كافة السحب تمر فوق البحر،

والطيور تترقق مثل الصرخات على العالم الفسيح،

وحدهما/كينغ كينغ/ الجبل الشاهق

والقزم /لي تاي بي/ سيظلان فوق الزمن

يوجد مختارات متنوعة مترجمة إلى لغات القرية: كتاب اليشب ترجمة /جيدن غوسيه/ قصائد من حقبة تانغ للماركيز /هرفي دي سان دليس/ وأعياد وأغاني صينية قديمة لـ/مارسيل غرانيت/. والقصيدة الصينية لـ/باتريسا غير ماز/.

يُميز أربع حقب للقصيدة الصينية.

- الحقبة القديمة حتى سلالة هان.

- من سلالة هان إلى سلالة تانغ.

- حقبة تانغ /٦٠٠ - ٩٠٠/.

- الحقبة الحديثة.

تُختتم عادة الحقبة الرابعة عام /١٩٠٠/ لتبدأ الحقبة الخامسة للقرن العشرين.

مصدر الأبيات القديمة:

الحقبة الأولى هي حقبة /شي كينغ/ التي سبق أن تحدثنا عنها. ولقد تم جمع الـ/كي شي يوان/ (مصدر الأبيات القديمة) في الحقبة الثانية. يحتوي هذا الكتاب على العديد من القصائد التي يعود تاريخها إلى الحقبة الأولى والبعض منها يعود إلى عصر /ياو/ وهي عبارة عن نقوش كانت، في تلك الحقبة، محفورة على أشياء ذات منفعة عامة. ويمكن مقارنة هذه الحكم بالأقوال المأثورة المنسوبة إلى الحكماء السبعة لبلاد الإغريق. وهذه بعض الأقوال

على عصا:

أين جرمك بك الخطر؟

عند الغضب المطلق العنان.
متى نبتعد عن الصراط المستقيم؟
عندما نستسلم للطمع.
أين نمنى الأصدقاء؟
عند الثراء وفي المناصب العليا.

على ثوب:

هذا من عمل دود الحرير...
والناس يكسرون له جهداً طويلاً.
إن رمينا القديم عندما يكون لدينا الجديد
سنعاني، في نهاية المطاف، من البرد.

على ريشة:

رأس الريشة مستدق للغاية..
يمكن إتقاذ المرء إن سقط في الماء:
ولكن لا يوجد إتقاذ إن فشلنا في العمل الأدبي.

على الباب:

كن حذراً عند الخروج.
كن حذراً عند الدخول.

على حذاء:

إسلك دائماً الصراط المستقيم،
ولا تفرص على الميزات.

على رمح:

الرمح منحوت! الرمح منحوت!
لحظة نفاذ صبر

يمكن أن تحزنك مدى الحياة.

لنختار من مصدر الآيات القديمة هذه القصيدة لـ/لي بن نيان/:

السيدة الجميلة

في الشمال تغطن سيدة جميلة
عندما سينهار العالم، وحدها ستبقى.
من أجل نظرة من عينيها دمرت مدينة
ومن أجل نظرة ثانية منها نُهبَت مملكة.
ومع أنهم يلُمون مدناً وممالك،
ما من أحد سيمتلك السيدة الجميلة.

ألقى /لي ين نيان/ هذه القصيدة في البلاط تهدي الإمبراطور قائلاً: هل يوجد مثل هذه المرأة في العالم أجمع؟ أجابه أحد أفراد الحاشية: «إن أخت /لي ين نيان/ تشبه هذه المرأة. استدعاهما الإمبراطور. فذهل لجمالها وتزوجها.

شعر تانغ:

عرف الشعر الغنائي في ظل سلالة /تانغ/ حقيقته العظيمة. وحتى القرن العشرين، اعتبر /لي تاي باي/ بالإجماع أمير الشعراء يليه مرتبة /توفو/ الذي كان يعتبر نفسه مجرد ناظم شعر باتس مقارنة سلفه الشهير.

لقد عاش كلاهما في القرن الثامن الميلادي وفي الوقت الراهن يتزايد باضطراب عدد المعجبين بـ/توفو/ ويعود ذلك، بلا شك، لكون /توفو/ كان يهتم بصورة أساسية بكل ما يهم جوهرياً، عصرنا: الإنسان. في حين أن /لي تاي باي/ كان يتأمل على وجه الخصوص الكون. لقد جرى تغيير مماثل في التقسيم فيما يتعلق بـ/اسخيلس/ و/سوفوكليس/. فالأول كان يميل نحو السمو والثاني نحو الإنساني. بيد أننا نلاحظ أن /تشين جين جوي/ الأديب والكاتب الهزلي المتوفى عام /١٦٦٠/ سبق وأن اعتبر أعمال /توفو/ تتفوق على أعمال /لي تاي باي/.

يظهر الطابع الكوني في شعر /لي تاي باي/ في هذين المثالين:

رقصة الآلهة

على ناي اليشب،

منفعلًا، كنت أعزف أغنية للناس.
 كان الناس يضحكون ولا يفقهون.
 حينئذ، مفعم بالحزن، رفعت ناي الشب
 وقلمت أغنيتي للآلهة، فتنت الآلهة،
 بين السحب الأرجوانية، أخذت ترقص على إيقاع أغنيتي.
 الآن، أعزف أيضاً أغنية للناس
 ولستهم. الآن يفهمون أيضاً
 أعزف أغنيتي على ناي الشب.

الناي الغامض

ذات أمسية كانت الأزهار وجميع أوراق الشجر تفوح بالعطر.
 جلب لي الريح أغنية الناي بعيداً، قطعت
 غصن صفصاف و
 طارت أغنيتي، رداً عليها، عبر ليلة عطرة.
 منذ تلك الأمسية، عندما تنام الأرض، تسمع الطيور حواراً بلغتها.
 كانت حياة /توفو/ مختلفة إلى حد ما عن حياة/ لي تاي باي/ لقد قضى القسم
 الأكبر من حياته في المنفى وتحدث الكثير من قصائده عن ذلك المنفى.

قصيدة من المنفى

نهر الشب أبيض، والطيور أكثر بياضاً
 جبال خضراء، وأزهار ستزهر عما قريب،
 هذا الريح، أراه، سيتقضي عما قريب.
 فإلى متى سنة عودتي؟

الهارب

عندما كانت الشمس تشرع بالغروب في الأفق

خلف أشجار التوت والدردار،
كنت أشرع بالسير مغموراً بنور آخر إشعاعاتها
كنت أطوف لوحة تبدل جبلاً وأنهاراً، وفجأة وجدت نفسي تحت
سماء أخرى.

أمام عيني تمر دائماً شعوب جديدة وعائلات جديدة:
ولكن، وبالأأسف، قريني المسكينة لا تظهر
في حين أن الكيانع العظيم يدفع، نحو الشرق، أمواجاً سريعة
لا يوقفها شيء،

أيام النفي تطول وتبدو أنها لا تمر.
... القمر الطالع لا يلقى بعد إلا نوراً ضعيفاً،
تناقصه نجوم كثيرة في التآلق.
منذ الأزمنة القديمة. كم من الهارين مثلي جاؤوا
أرضاً غريبة!
ألا يحق لي أن أشتكي من مصائبي؟

.....

كان أتوفوا مثل إلي تاي باي/ يبحث عن النسيان في الخمر:

عند غروب الشمس

تدخل الشمس تحت الستائر قاذفة إشعاعاتها المائلة، وعلى ضفاف
النهر تُنجز، بصمت. أعمال الربيع المضنية. في حين أن جنائن
الضفة تطيب الهواء بعطور تنشرها ألف زهرة،
وعلى القارب العائم يfli الرز من أجل وجبة المساء. والعصاير
تتراحم على طعامها، وتلهو بصخب في أوراق الشجر.
وحشرات مجنحة تطن هنا وهناك في الفضاء؛
لقد غزت منزلي
أيها الخمر الكرم! من أعطاك هذا القدر من القوة؟

في كل كأس أصبه أشعر أن آلف أحزان تتلاشى.

الشعر الحديث:

كرس شعراء الحقبة الرابعة الممتدة، من عام ٩٠٠ إلى ١٩٠٠، أنفسهم لدراسة ومحاكاة شعر /بانغ/
ويتميز الشعر، في القرن العشرين، باتجاه واضح لتحرر من معوقات التقاليد، والتأثير الغربي واضح فيه أشد الوضوح.

الرواية:

لم تستفد الآداب الصينية عندما تحدثنا عن المجموعات الأربع: الكلاسيكيون، مؤلفات تاريخية، المعلمون، المختارات. تُعتبر الرواية والمسرح في الصين آداب التسلية. ولا تظهر الأعمال الخيالية «الحكايات الصغيرة، والقصص القصيرة» في الفهارس إلا بصورة هامشية. وأكثر ما يثير الإستغراب هو رؤية /تشين جين جوي/ يصنف بعض الروايات بين رواع آداب بلده.

إن أشهر هذه الروايات دون شك، هي رواية /السان قواتشي ين اي/ «رواية تاريخية عن ثلاث ممالك» ولقد ترجمها /تيودور بافي/ جزئياً إلى الفرنسية كما يوجد ترجمة كاملة بالانكليزية لـ /يرفيت تايلور/. يدور حدث هذه الرواية خلال الحقبة المضطربة الممتدة من عام ٢٢١ - ٥٨١ ميلادية. عاش كاتب الرواية/ لو كوانغ تشونغ/ حوالي عام ١٣٠٠ ميلادية.

أما رواية /هونغ ليومونغ/ فيعود تاريخها للقرن الثامن عشر. ومن الصعب ترجمة عنوانها: حلم في الجناح الأحمر، أو حلم في جناح الحرير. هونغ ليو، طابق «مدهون بالأحمر، يشير في الأدب الصيني إلى شقق الحرير في منازل الأثرياء. لقد ترجمها أندريه دي هورمون وتشي هوا ترجمة كاملة إلى الفرنسية برعاية اليونسكو، كما توجد ترجمة لها بالانكليزية لـ /بنغرافت جولي/.

تقدر الصين الحديثة تقديراً كبيراً قصة /تشويه هوتشوان/. قصة «ضفاف الماء» وقد ترجمها للانكليزية بيرل بوك بعنوان /كل الناس أخوة/. إنها رواية كثيرة الحركة تروي مغامرات مئة وثمانية فلاحاً أصبحوا خارجيين على القانون لأن الموظفين الظالمين كانوا

يضطهدونهم. تحسّنوا في جبال /ليانغ/ وتحذوا الجيش الذي أرسل جندهم. إن النجاح الكبير الذي لقيته هذه الرواية جعل /تشين جين جوى/ يضعها في المرتبة الخامسة للأعمال العبقريّة إلى جانب: تشوانغ - تسو، سما تشان و/توفو/، والرّاء الغارق في الألم، ومأساة: ملاحظات الجناح الجانيبي.

لقد منعت كثيراً رواية /ضفاف الماء/ بسبب المويحات الثورية. وبالفعل، كان أبطال الرواية يسلبون الأغنياء لحماية الفقراء والمضطهدين واليوم تقدم على أنها الرواية الشيوعية الأولى.

ومثل الشعر، مجمعت القصص في مجموعات قصصية. لنذكر «تشين فوكي قوان» (مرآة أحداث الماضي والحاضر الغريبة) و/الـياوشيتشي/ (قصص غريبة لمقصورة دراسة) التي تضم حكايات خيالية.. فالعجيب يحتل حيزاً هاماً في الآداب الخيالية الصينية.

وسنرى مثلاً جليلاً من هذا الأدب في قصة قصيرة قديمة جداً يقوم بيطولتها /تشوانغ - تسو/ بدور الساحر العظيم. توضح القصة موقف /تشوانغ - تسو/ من النساء: (الحكيم ليس عاطفياً، إنه يعتبر الكائنات البشرية مثل الكلاب، لقيمة لها، تحيط بمذبح الأضحية). هذا هو المبدأ الطاوي. ولكن هذه الكلية «التي وجدناها أيضاً عند يانغ - تسو» ربما ليست إلا رد فعل ضد ففاق المجتمع الكنفوشيوسي الجامد في طقوسه وفي آداب السلوك.

وهذه القصة معروفة تحت عنوان ذي مغزى «الأرامل عديمات الوفاء» وإليك ترجمة حديثة لها.

الأرامل عديمات الوفاء:

ذات يوم كان /تشوانغ - تسو/ ينتزه، وبينما كان غارقاً في أفكاره، وصل إلى سفح جبل، وفجأة وجد نفسه محاطاً بالقبور.

«وأسفاه! صرخ الحكيم، هنا الجميع متساوون حيث تزول المراتب والامتيازات. فأجهل الناس يرقد إلى جانب الأكثر علماً. القبر هو بحق المثوى الأخير للجميع، وحالاً نأخذ مكاننا فيه، لا يبقى طريق للعودة».

توقف لحظة، تحت تأثير أفكاره السوداوية. ثم استأنف نزهته. بمحاذاة صفوف القبور. وفجأة لاحظ شاهدة قبر نُصبت حديثاً وإلى جانبها امرأة شابة في لباس الحداد

تحرك مروحة بيضاء كبيرة. تأثر أشد التأثير من هذا المشهد، سأل /تشوانغ - تسو/ المرأة: من يرقد في القبر ولماذا تقومين بهويته؟ ودون أن تتوقف، نطقت، بصوت خافت، ببعض الكلمات غير المفهومة وذرفت بعض الدموع. بدا للفيلسوف أن الحجل أكثر منه الخوف هو ما كان يمنعها عن التحدث. ألح وأخيراً تكلمت متتجة: وإنكم ترون هنا أرملة أمام قبر زوجها، هذا الموت جعلها تيمسة أشد التعاسة. كان هذا الذي عظامه تحت هذا الحجر عزيزاً غالياً عليّ. وكان يمنحني حناناً دائماً. وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، رجائي أن أنتظر حتى يجف تراب قبره تماماً قبل أن أتزوج ثانية، هذا إن كان علي أن أفكر بذلك يوماً ما. ولقد ترك لي حرية إختيار من يعجبني، وكما ترون، لا يجف تراب القبر لقد بلله المطر ولذلك أهويه حتى يجف بسرعة.

وجد /تشوانغ - تسو/ صعوبة في كبت إبتسامته وهو يسمع هذا الإعراف الساذج وفكر: هذه المرأة فظيمة! كيف تجرؤ على الكلام عن المحبة المتبادلة التي كانت تربطها بزوجها؟ هذا إن كان يحبان بعضهما البعض، فكيف كان سيكون الأمر لو كانا يكرهان بعضهما البعض؟. وقال لها: إنك ترغين في تجفيف تراب هذا القبر. سيكون ذلك طويلاً ومضنياً وستعيبك. دعيني أساعدك!. نهضت المرأة. انحنى باحترام وقدمت لـ/تشوانغ - تسو/ مروحة أخرى ماثلة لمروحتها التي كانت تستخدمها بنفسها. كان للفيلسوف القدرة على طرد الأرواح وكذلك على استحضارها لمساعدته. وبلحظة واحدة، جف القبر. شكرته المرأة بلطف، سحبت دبوسها الفضي من خصلة شعرها وقدمته له كما قدمت له المروحة، رفض / تشوانغ - تسو/ الدبوس ولكنه قبل المروحة. ابتعدت المرأة فرحة مرحة.

عاد الفيلسوف إلى منزله تائهاً في أفكاره، دخل غرفته، وتأمل، بصمت المروحة البيضاء تأملاً طويلاً؛ ثم صرخ بأعلى صوته: «في الحقيقة، عندما يتزوج كائنان، فذلك بسبب الحقد الذي يكتان لبعضهما البعض وليرعجا بعضهما البعض بمتهى الحرية».

بعد أن علمت زوجة /تشوانغ - تسو/ بالقصة فجرت سخطها قائلة: «هذه المرأة خائنة للعهد. إنها وحشة عديمة الإحساس». إلا أن /تشوانغ - تسو/ أصر على أن ييرهن لها أنها لا تختلف عن تلك المرأة. وكساحر جيد، وضع نفسه في حالة سبات وبواسطة الشعوذة أظهر شاباً أشد بسرعة قلب المرأة. ارتدت زينة العروس في الوقت الذي كان جسد زوجها مازال يرقد في الجناح في نهاية الحديقة، ولكن خلال مأدبة العرس استولت على العريس الشاب نوبة صرع عتيقة. أكد خادم المنزل

للمسن لسيدته أن الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يضمن الشفاء هو مخ رجل توفي ثوبه.

لابأس صرخت العروس. إن هذا الرجل الذي يتألم آليس زوجي من الآن وصاعداً؟ ألا يجب علي أن أعمل كل شيء لحلمته وهل من اللامم أن يترك الأحياء يعانون من الإحترام الذي نكته للأموات؟

سلمت زوجها الجديد لرعاية الخادم الذي كان قد اصطحبها، تزودت بمصباح وفأس. دخلت الجناح في مؤخرة الحديقة حيث كان يرقد جسد زوجها للمرحوم. شمعت عن أكمام ثوب الزفاف الطويلة، وبضريات قوية، خلعت غطاء النعش، لهثت من الجهد، فأخذت لحظة استراحة. وعندما سمعت تنهيدة عميقة، رفعت عينها ورأت زوجها ينتصب على مؤخرته داخل النعش، أطلقت صرخة ثانية من الفزع تاركة الفأس يسقط من يدها.

- يازوجي العزيزة، قال الفيلسوف بهدوء أعطيني يدك وساعدني على الخروج من هنا.

أطاعت بصورة تلقائية، وحللاً أصبح واقفاً، أخذ الحكيم المصباح وتوجه إلى الصالون. تبعته زوجته بخطى مترنحة وضاق صدرها خوفاً مما كان سيحدث، ولكن عندما رأت أن زوجها الشاب وخادمه قد اختفيا، استمادت شجاعتهما وحاولت الخروج من الورطة التي وضعت نفسها فيها. قالت وهي تنظر إلى اللبنيث نظرة حنان. كانت أفكاره، ليلاً نهاراً، بالقرب منك. وعندما سمعت، أخيراً ضجة قادمة من النعش، تذكرت أن الأموات، في بعض الأحيان، يعودون للحياة. لقد راودني الأمل أن مثل هذا الحظ يمكن أن يُمنح لك، فأسرعت لفتح النعش بهذا الفأس حملاً للسماء، لم يخب أمني! كيف أعبر عن فرحي لرؤية زوجي الحبيب ثانية الذي كنت سأبكيه إلى الأبد.

لقد تأثرت بالغ التأثر، قال /تشوانغ - تسو/. ومع ذلك اسمحي لي ببعض الأسئلة. لماذا لارتئين لباس الخناد، ولماذا هذا الحرير الذي تلبسينه؟ لم يتأخر الرد: «كنت متأكدة وأنا أقرب من النعش أن خاتمة مغامرتنا ستكون خامة سعيدة. فكرت بأن لباس الخناد يناسب فرحي أقل من لباس العرس الذي تراني فيه». بالتأكيد، قال الفيلسوف، ولكن لماذا جسدي كان يرقد في جناح مؤخرة الحديقة وليس في الصالون الكبير كما هو أنسب؟

.. هذه المرة لم نجد المرأة شيئاً ترد به - اقرب/تشوانغ - تسو/ من المائدة كانت فضلات مأدبة العرس ماتزال تغطيها. وبصمت، أفرغ قلع نبيذ ساخن ثم قال لزوجته: «انظري خلعك! استدارت، فإنتابها دعر شديد حين رأت العريس الشاب وخدامه يدخلان. ولكن الشيخ تلاشى بسرعة. شرح /تشوانغ - تسو/ بأن الأمر يتعلق بسراب ظهر بفعل فن السحر الذي يمتلك ناصيته.

لم تعد الامرأة المسكينة تريد العيش مع عارها، هرعت إلى غرفتها، وخنقت نفسها بحزام من الحرير وماتت فاقدة الأمل بالعيش. وضعها زوجها في النعش الذي كانت قد خصصته له، وبعد ذلك قام بتحطيم كافة أواني المأدبة. عزم أشد العزم على أن لا تزوج ثانية أبداً. رحل والتقى الحكيم /لاو - تسو/ فكرس له كل وجوده وأصبح مريده الرئيسي.

لم يكن /لاو - تسو/ و/تشوانغ - تسو/ معاصرين. لقد ثبت ذلك، ولكن هذه القصة الخيالية غنية بالمعاني إذ أن هذه القصة المليئة بالقساوة والسحر تخفي أخلاقية. إن معظم العلاقات الإنسانية تبقى علاقات عابرة وسطحية، في حين أن مغزى الطاوية يكمن في نهاية الأمر في كونها تقوم على الأبدى وتدعو إلى علاقات أكثر ثباتاً.

إن الكثير من القصص القصيرة تقدم الثعلبية، امرأة شيطانية غاوية، تُفقد عقول الرجال. وأتينا نجد مثل هذا الموضوع تحت اسم ديوك (الامتحان)، في الأدب العبراني الشرقي. فالثعلبية تعرف ألف حيلة لقهر الرجل وإخضاعه لسلطتها ولجعله يرتكب الأعمال الآثمة الشريرة.

المسرح:

يلعب الحب أيضاً دوراً هاماً في المسرحيات، ولقد أصبحت الآلاف من هذه المسرحيات شعبية جداً في الصين. ويقع العصر الذهبي للمسرح في القرن الرابع عشر. ويعود إلى مسرحية دائرة الطيشور المعروفة عالمياً والتي اقتبسها /بروتولت بريخت/ وهناك مسرحية أخرى هامة وهي مسرحية «عازقة القيثارة» التي يعود تاريخها لعصر /مانغ/. وقد نشرت لأول مرة عام ١٧٠٤ وترجمها /بازان/ إلى الفرنسية.

في هذه المسرحية، توجه شاب إلى /يكن/ لتقديم امتحانات الدولة. اضطره

ذلك إلى مغادرة أهله وزوجته الشابة. وفي بكين، نجح بتفوق وكان الأول. ومكافأة له رقاہ الإمبراطور إلى المراتب الاجتماعية، ولكن فرض عليه أيضاً أن يتزوج ابنة وزيره. لم يستطع نسيان زوجته الأولى. وخلال هذا الوقت، عانت زوجته ووالدها من الجوع. وعندما توفي والده، رحلت الزوجة الشابة بحثاً عن زوجها. وكانت تريح قوتها بالعزف على القيثارة في المدن التي كانت تعبرها وأخيراً وصلت إلى قصر زوجها الذي اعترف بها واستقبلها بفرح، وعاش زماً طويلاً سعيداً راضياً مرتاحاً بين الزوجين.

شهدت الدراما الصينية نهضة في القرن العشرين، وأحرزت مسرحية الكرة المطرزة «القدر» نجاحاً كبيراً حتى في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

يستطيع المرء، أن يعمل ملخصاً جيداً للفلسفة الصينية، ولكن بالنسبة للأدب، فهذا مستحيل تماماً، أبدى /ريفانذك/ وهو يتحدث عن مختارات /تشى جين جوي/ الملاحظة التالية: هذا إختيار مثقف صيني. أوافق عليه عن طيب خاطر، ولكن ليس دون إبداء بعض التحفظات، ودون إضافة بعض الأعمال الأخرى. لقد جمع بالفعل، بعض القمم في الأدب الصيني، ولكن من يستطيع أمام هذا المشهد الجبلي القول: هل هذه أعلى قمة؟ إن المشهد الطبيعي، الذي يحيط بي، بمئات الألوف من الكتب، التي هي تلال بقدر ماهي وديان، يبدو وكأنه يسأل: ألا يوجد شيء أقوله عني؟ ينبغي تحديد الاختيار.

إن الأدب الصيني من الضخامة بحيث أن الموجزات الأكثر تفصيلاً ليست إلا مختارات اعتباطية. إن الحيز الضيق الذي نمتلكه لم يتح لنا ذكر المؤلفات العلمية. نذكر الموسوعة المؤلفة في القرن الخامس عشر والتي تحتوي على مالا يقل عن /٢٢٩٣٧/ جزءاً.

إننا لمدينون ل/لاو - تسو/ لتعليمنا أن ماهيم، ليس السيل من الكلام وإنما الكلمة الجوهرية التي لا يمكن أن تُنطق. إن حكمة الكائن الخفي تتجاوز الجمال والحقيقة:

كلام صادق بلا جمال،

كلام جميل بدون حقيقة.

العلماء ليسوا حكماء.

الحكماء ليسوا علماء.

الحكيم لا يكدر.
يقدر ما يعطي أكثر،
يقدر ما يمتلك أكثر.
الطاو مينة بلا ضرر.
الطاو يستطيع التحمل بدون صراع.

الفصل الأول

الطاو

أو الكائن في حد ذاته
الطاو الذي نستطيع تسميته ليس الطاو

/لاو - تسو/

/الطاو/ هو أعمق وأوسع الرموز التي أهدتها الثقافة الصينية ولذا سنبداً به وسنعود إليه في الفصل الختامي.

إلا أن ذلك لا يعني أن /الطاو/ هو أقدم قيم الحضارة الصينية، لأن ما من حضارة تعطي دفعة واحدة مفهوماً تجريدياً روحانياً للأشياء، ولا تبلغ ذلك إلا عبر حقبة من التأمل بالظواهر الطبيعية يظهر في نهايتها مبدأ روحاني، لا يعبر عنه في بادئ الأمر، يمكن أن يشمل جميع الأشياء؟

الطاو السحري والطاو الصوفي:

لم تحرر الحكمة الصينية الأكثر قدماً من التصورات السحرية إلا قليلاً. إلا أن المرء يشعر بوجود شيء من روحانية الطاو في كتاب /لي كينغ/ (وسطاء الوحي) المقدس.

لقد شهد مفهوم الطاو تطوراً طويلاً قبل أن يكتسب المحتوى الصوفي الذي منجد تعبيره الصرف في كتاب /طاو لي كينغ/ الذي ينسب إلى أعظم حكماء الصين /لاو- تسو/. يبدأ هذا الكتاب بتأكيد ذي مغزى: الطاو الذي نستطيع تسميته ليس الطاو. نستنتج من ذلك أن /لاو- تسو/ يريد التمييز بوضوح وجلاء بين الطاو السحري والطاو الصوفي. ويعتبر أن الطاو السحري محاولة خرقاء، محكوم عليها بالفشل، في تناول جوهر الأشياء.

/لاو- تسو/ و/كفوشوس/:

من كان /لاو- تسو/ هنا؟ يُصور /لاو- تسو/ عادة راكباً على جاموس الذي يرمز إلى الإجتراح الهادئ للواقع. وكثيراً ماصور أيضاً بالتين، رمز اللوعي. وحسب التقاليد، وهذا ماسنراه فيما بعد، كان /كفوشوس/، خصمه الروحاني، هو أول من شبه /لاو- تسو/ بالتين.

لأنعرف، في الواقع، في أي عصر بالضبط عاش /لاو - تسو/ لقد حدد الصينيون، ذلك في حوالي عام /٣٠٠/ قبل الميلاد، بينما ترفض التقاليد الصينية أن يكون معاصراً لـ/كتفوشيوس/ وأكبر منه سنًا. ولإثبات ذلك، يستندون إلى سيرته الذاتية التي كتبها أكبر مؤرخ صيني /سماتشان/ الذي كان يعيش حوالي عام مئة قبل الميلاد. يجري هذا المؤرخ، بأسلوب مقتضب لا يمكن محاكاته، مقارنة بين الفيلسوفين:

ولد /لاو - تسو/ في قرية /قوهيان/،
في منطقة /لاي/، إقليم /قو/ في مملكة /تشو/
اسم عائلته /لي/.
اسمه الشخصي /أوول/ و
اسمه الفخري /بي يانغ/،
اسمه بعد وفاته /شي تانغ/.
قدم /قونغ- فو تسو/ (كتفوشيوس) إلى بلد /تشو/.
ليسأل /لاو - تسو/ عن الطقوس.
قال له /لاو - تسو/:
- عندما يعرف الحكيم أن أجله قد حان،
يصعد إلى الفضاء.
إن لم يتقضى زمانه،
لا يشكل جنوراً.
- الناس الذين تحدث عنهم،
حتى عظامهم أصبحت غباراً؛
ولم يبق منهم سوى ذكرى كلامهم.
الرجل المتفوق لا يتنقل بحرية
إلا عندما تكون الظروف الملائمة.
والأ، سيسير وفقاً لمشية الرياح
مثل الورقة الميتة.

يقال: أن التاجر الجيد
يخفي ثروته
ويعطي لنفسه هيئة الفقير.
الحكيم الحقيقي
يريد أن يعطي لنفسه هيئة الجاهل.
أترك هناك كبريائك
وكل رغباتك
وكل هذا الحرص على المظاهر
وكل هذا الطموح.
هذا ماعندي لأقوله لك. حظ سعيد!

.....
عاد /قونغ فو تسو/ إلى بلده.
وتحدث إلى مريديه على هذا النحو:
- أعرف أن الطيور تطير،
وأن ذوات الأربع تركض.
الحيوانات التي تركض تصاد بالفخ.
والتي تسبح، تصاد بالشبك.
والتي تطير تصاد بالسهام.

.....
ولكن التين الذي يصعد إلى السماء
تحمله الرياح والسحب،
لأعرف
كيف يمكن إصطياده!
اليوم، رأيت /لاو- تسو/:
إنه مثل التين

عاش /لاو - تسو/ الطاو/ وال/تي/

ظل متوارياً

وبقي بلا اسم.

عاش زمناً طويلاً في بلد /تشو/.

وعندما رأى فيها الإنحطاط،

تخلى عن مهمته.

كان في هان قو، الممر الجبلي على الحدود.

هناك، قال له /لين هيم/، حارس الحدود:

-إنكم مستكفون:

أرجوكم أن تكتبوا كتاباً.

حينئذ، ألف /لاو - تسو/ كتاباً من جزئين،

حول /ال/طاو/ وال/تي/،

يتألف أكثر من خمس آلاف كلمة،

وبعد ذلك رحل،

وما من أحد يعرف أين مات.

/لاو - تسو/ كان حكيماً،

ويحب العيش مستكفاً.

أولئك الذين يفهمون حكمة /لاو - تسو/

يستخفون بالتعلمين؛

والتعلمون، بدورهم يستخفون ب/لاو - تسو/.

لأنه كيف يمكن أن تنمو معاً أشياء

ليست لها جذور مشتركة؟

لقد حول /لاو - تسو/ الشعب

إلى عدم الفعل.

وبالتقاء والهدوء

قاده إلى المصير

ليس من السهولة بمكان إعادة تكوين أصل هذا التقليد من حيث تسلسل الأحداث التاريخية، إن مفهوم الطاو الصوفي تولد بعد مفهوم الطاو السحري. ولكن بالنسبة لأتباع /لاو - تسو/ إنه يسبقه. ولذا كان يلزم، إذن، أن يصبح الأخ الأكبر /د/ كنفوشيوس/. وهكذا تخيلوا هذا اللقاء بين الفيلسوفين ولكنه ليس اللقاء الوحيد الذي تذكره التقاليد.

إذا كان /تشوانغ - تسو/ وهو ألمع مفسري /لاو - تسو/ يتلذذ بمكر في سرد مثل هذه القصص عن اللقاءات المثلثة دائماً /د/ كنفوشيوس/. كان يُظهر /لاو - تسو/ فيها دائماً للمعلم الذي يعطي درساً للجاهل بإصول الطاو.

وهذه إحدى الحوارات التي نقلها بتومع. ومنشرح مفهومي القطبية الياونغ (الذكرى) والين/ (الأنثوي) في الفصل التالي:

زيارة /كنفوشيوس/ لـ/لاو - تسو/:

ذهب /كنفوشيوس/ لزيارة /لاو - تسو/ فوجده جامداً بلا حراك وفي حالة انخفاف بالروح واستولت عليه الغيبة بينما كان يجفف شعره بعد الوضوء. انتظر باحتشام حتى يعود إلى نفسه ثم قال له:

- لقد تركت الأشياء والناس واختليت في عزلة الأنا!

- نعم، قال /لاو - تسو/، أرتع في أصل الأشياء.

- ماذا يعني ذلك؟ سأله كنفوشيوس.

- لم أعد بعد تماماً إلى حالي، قال /لاو - تسو/، فروحي مازال تعب ولا تستطيع بعد التفكير كما ينبغي، وفي المشلود لا يستطيع النطق بسهولة. ومع ذلك سأحاول إرضاعك... إن ذروة الين/ هي السلبية الهادئة وذروة الياونغ/ هو النشاط الخصب. إن سلبية الأرض تعرض نفسها إلى السماء وإن نشاط السماء يمارس على الأرض: من هذين الشيين ولدت جميع الكائنات. إن قوة غير مرئية من فعل ورد فعل الثنائي سما - أرض تحدث كل تطور: بداية، توقف، كمال، فراغ، ثورات فلكية، مراحل الشمس والقمر، كل هذا تحدثه علة وحيدة ما من شخص يراها ولكنها حاضرة دائماً.

الحياة تتطور نحو هدف، الموت عودة نحو الأجل. التكوينات تتعاقب بلا نهاية دون أن نعرف أصلها ودون أن نرى نهايتها. إن فعل ورد فعل السماء، الأرض هما المحرك الوحيد لهذه الحركة. هنا يكمن الجمال، الفرح الأسمى والترع في الإنخراط بالروح، هو نصيب الإنسان المتفوق

طاو تي كينغ:

إنه لمن المناسب أن نرى في هذا اللقاء بين /لاو - تسو/ و/كنفوشيوس/ لقاء بين الطاوية والكنفوشوسية، حتى اسم /لاو - تسو/ لم يطلق إلا في وقت متأخر على /لي أوول/ حافظ الأرشيف /تشوول/. إذ في البداية كان يطلق اسم /لاو - تسو/ على الكتاب نفسه. الذي يترجم عادة بـ/الحكيم العجوز/ أما فيما يخص تسمية الكتاب بـ/طاوتي كينغ/ فهي تسمية أحدث أيضاً. والتقاليد الفولكلورية تعطي لـ/لاو - تسو/ معنى «الطفل العجوز» و/تسو/ تعني في نفس الوقت طفل وحكيم. وبما لاشك فيه أن سبب ذلك يعود إلى أن من خاصة الحكيم أن يحتفظ ببراءة الطفل. و/لاو - تسو/ نفسه يعلن في الحكمة الخامسة والخمسين «الإنسان النبيل هو مثل الطفل».

وحسب المعتقدات الشعبية، كانت أم /لاو - تسو/ فلاحاً بسيطة للغاية، وقد حملته واحداً وثمانين عاماً وحين ولد كان أشيب الشعر والحاجين، يبدو أنه علينا أن نتقن من العدد الكبير للأساطير بوجود /لاو - تسو/ التاريخي.. إذ غالباً ماتناهى العلماء الذين يشككون في وجوده عن اقتراح تفسير آخر لوجود الـ/طاو تي كينغ/ الذي لا جدال فيه.

لقد اعتقد بعض اليسوعيين أنهم اكتشفوا تطابقاً بين بعض نصوص /الطاو تي كينغ/ والكتاب المقدس. وهذا ماينفيه معظم الصينيين الذين يعتبرون ذلك مجرد مصادفات بحتة. بيد أنه تم مؤخراً إلقاء الضوء على وقائع جعلت من وجود تأثير مباشر أمراً محتملاً جداً.

لقد كان /لاو - تسو/ بالفعل، حافظاً للأرشيف في مقاطعة /هو نان/ حيث كانت تعيش جالية يهودية هامة. لقد أحرق وأعيد بناء كنيس /كاي، فينغ فو/ عدة مرات (إن رواية «يفوان» الجميلة لـ/بيرل بوك/ مكسرة، تحديداً، خلف هؤلاء اليهود الصينيين). لقد ثبت أن أولئك اليهود في /كاي فينغ فو/ كانوا أقرب إلى الطاوية منهم إلى الكنفوشوسية. لقد تم العثور، على سبيل المثال، على النقش التالي بالعبرية: «كان

موسى يعلم ال/كينغ قو/ «الإيمان الحقيقي» ومنه أن ال/طاو/ وال/تي/ كاملان. وفي الحكمة الرابعة عشرة من ال/طاوتي كينغ/، الوحدة الأصلية هي: اي/غير مرئي/شي/ غير مسموع/وي/ غير ملموس/ وهذه الأحرف كانت تلفظ في ذلك الزمان/اي هي في/ العليد من الفلاسفة الصينيين يقرؤون ذلك من JHVH^(٥):

هذا هو نص الحكمة الرابعة عشرة:

مرئي، ولكن دون أن نستطيع رؤيته،

الاسم هو غير مرئي/اي/.

مسموع، ولكن دون أن نستطيع سماعه،

الاسم هو غير مسموع/شي/.

لملموس، ولكن دون أن نستطيع لمسه،

الاسم هو غير ملموس/وي/.

انه يتجاوز كل بحث

ويتصهر في الوحدة/اي/.

ليس من المخطور أن نرى في هذه الحكمة محاكاة صينية للأحرف الأربعة JHVH ولكن ذلك ليس، بالتأكيد، إلا فرضية مهما كانت مغرية.

مستلقي/الو- تسو/ كثيراً خلال نزهاة عبر القيم الكبرى للحضارة الصينية، مماثلة الكتاب المقدس بالنسبة للغرب هو مماثلة ال/طاوتي كينغ/ بالنسبة للصينيين. لقد أصبح التين رمز/الو- تسو/ رمزاً للإمبراطورية السماوية يحض الحكيم على ممارسة ال/وووي/ (اللافعل). وكان حتى عام ١٩١٢ لا يزال يزين قبة «عرش التين» (العرش الإمبراطوري). وكان الأباطرة العظماء هان، تانغ، مينغ يقرؤون ال/طاو تي كينغ/ وماوتسي تونغ نفسه بدأ مهنته بقراءة/الو- تسو/.

مرآة العالم:

إن هدفنا هو إظهار الحضارة الصينية بكاملها وتقديم هذا الكثر من الحكمة والجمال تراكم منذ خمسين قرناً. ولكن قيل أن نتحدث عن الصين، قد يكون من المفيد أن

(٥) ان الأحرف الصوامت الأربعة JHVH تشكل بالعبرية أقدم اسم للإله «الأزلي» هذا الاسم يلفظ «ياهوا». بيد أن يهودياً متدينياً يتجنب لفظ هذا الاسم ويفضل ذكر (أدوناي/ الرب).

ترك الصين يتحدث عن نفسها ماذا تقول الصين عن العالم وعن عشرات الآلاف من الأشياء تحت الشمس؟ ماذا تقول عن الفرح، عن مأساة العيش، عن السعادة، عن الألم، عن الماضي، وعن الحاضر.

مثل المرأة، يجب أن يعكس قلب الحكيم كل شيء دون أن يأتي خطأ واحد ليغشها.

كفوشويوس

ما من شيء أصقل من مرآة غدير هادىء. دون أية تجميلة، ترقد المياه بين حافتي النهر. وكذلك الفضيلة الروحية تبقى صامته بلا حراك، ولكن العالم أجمع يأتي ليتمرى بها.

تشوانغ تسو

لا يتمرى المرء في الماء الجاري، الهدوء وحده يستطيع تهتة كل شيء.

تشوانغ - تسو

نستخدم العذسة لكي ندرس شكل الأشياء بصورة أفضل: ينبغي كذلك دراسة الماضي إن كنا نريد فهم الحاضر.

كفوشويوس

تشكل المرأة، التي كانت كثيراً ما تذكر في الحكم الصينية، أحد أقدم رموز الثقافة الصينية، وترد الكلمة، منذ أقدم العصور، في عناوين المؤلفات التأملية التي تزعم أنها تغطي مختلف مناحي الحياة. وما تزال مرآة الإمبراطور /تاي تسونغ تان/ مشهورة. لقد استخلمت الكلمة بنفس المعنى في الغرب بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين. ولقد كثر ذكرها: مرآة الحياة والموت، مرآة المجتمع الفرنسي^(٥)، مرآة النفس الخاطئة. وهناك مرآة أخرى مشهورة في الصين وهي مرآة الملوك التي ألّفها المؤرخ الصيني /لو كيا/ في حوالي عام ٢٠٠ /قبل الميلاد من أجل سلاسة /هان/. بيد أن هذا العنوان لم يطبق على هذا المؤلف إلا في وقت لاحق. يُذكر /لو كيا/ الملوك يأمثلة حكماء

(٥) لقد جاءت كلمة Speculation الفرنسية وتعني تأمل، تفكر من الكلمة اللاتينية Speculum وتعني للمرأة.

الأزمة القديمة الذين كانوا يسرون خط القوة السماء - الأرض. وكانت برهته تهدف لشرح /الطاو/. لقد حاول ذلك أيضاً جميع الفلاسفة الصينيين كما حاول، فيما بعد، الصينيون ترجمة كلمة «الطاو» ولكن لم يستطع لا هؤلاء ولا أولئك إلا تقديم مقاربات: الطاو الذي تستطيع تسميته ليس الطاو.

تجربة المطلق:

يشرح الصينوي الفرنسي، هنري ماسبيرو، أن العلم الحقيقي، بالنسبة للحكيم، ليس علم الأشياء المحسوسة وإنما علم الحقيقة المطلقة التي تتجاوز الأشياء المحسوسة. إنه علم المطلق التي تسميه المدرسة الطاوية بالطاو. إنه لا يكتسب بالدراسة «أولئك الذين يريدون الحصول على /الطاو/ يبحثون عن ما لا تعطيه الدراسة، وأولئك الذين يريدون الحصول عليه بالجهد، يبحثون عن مالا يعطيه الجهد» والتجربة وحدها تسمح ببلوغ /الطاو/ عبر مختلف المراحل التي وصفها المتصوفون في كافة الأزمنة وجميع البلدان: انفصال، زهد، وجد الذي هو تارة حالة رعدة وتارة حالة رؤية. وفي النهاية: الاتحاد الذي يشكل «السر الخفي الأعظم».

ترجمة كلمة الطاو:

يفضل الكثير من الصينيين عدم ترجمة كلمة الطاو بينما يقترح آخرون الكلمات التالية: الكلمة، الفعل، الطريق، الدرب، الاتجاه، الفراغ.

لقد سعى الصينوي الألماني /ريتشارد فولهيم/ إلى الجمع بين معنى «الكلمة ومعنى الطريق» مستنداً إلى التصور الإغريقي للوغوس، كلام، كلمة «الله، عقل، وسيط بين الله غير المرئي والعالم المرئي».

يجد المفهوم الديني للوغوس تعبيره النموذجي في بداية الإنجيل وحسب القديس يوحنا «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». نجد في الترجمة الصينية لهذا النص كلمة «الطاو» ثلاث مرات. ويقول الصينوي (دول) بهذا الصدد لقد لمست عدة مرات أن المتعلمين الصينيين يستمتعون في قراءة هذه الجملة الإنجليزية: إذ يجدون فيها جزءاً من أدبهم الكلاسيكي. ولكن /فولهيم/ سعى أيضاً للإقتراب من أصل Sinn المشتقة من الفرنسيك Sin «الاتجاه» التي فعلها Sinthan يعني ذهب.

إذن «sinn» يمكن أن تُفهم بطريقة ساكنة وبطريقة ديناميكية: في حين أن /درب/ وطريق، يشيران إشارة واضحة إلى الحركة، إن أنصار هذا التفسير الأخير يسرهـم الإشارة إلى الأصل السحري لمفهوم الطاوو والنسبة لهم، طاوو السماء هو درب السماء وطاو الأرض هو درب الأرض. لقد سبق وأن رأينا أن الحكيم، بالنسبة للمؤرخ/الوكيا، هو الذي يسير خط قوة السماء والأرض. لقد تم أحياناً مقارنة طاوو السحرة بتيار كهربائي يخلق ساحة مغناطيسية.

إن قراءة الشروحات القديمة وخاصة شروحات تشوانغ - تسو تطعن بهذا التفسير: يبدو أن /طاووي كينغ/ على العكس، هو ردة فعل ضد التصورات السحرية، ويبدو أن تأكيد /لاو- تسو/ يعني أن /طاووه/ يجب أن يفهم بصورة مختلفة تمام الاختلاف عن طاوو السحرة. هنا ويظل طاو /لاو- تسو/ غريباً عن مفهوم تكافؤ الأضداد /ين ويانغ/ الذي يشكل أساس المفهوم السحري للعالم.

أصل الكل:

لم يمل /تشوانغ - تسو/ من ترديد أن الطاوو يسبق جميع التناقضات. إنه البدء، والأصل الأول للكل، والمحرك الأول، والكمون، وجوهر الكمون. خلق كل شيء. وهذا ما يظهر بوضوح في الحكمة الثانية والأربعين للـ/طاووي كينغ/.

الطاوو خلق الواحد.

والواحد خلق الاثنين.

والاثنان خلق الثلاث.

والثلاث خلق جميع الكائنات.

إن تطور /الطاوو/ إلى الواحد ومن الواحد إلى الاثنين يشكل موضوع الدلي كينغ/ كتاب التحولات الذي ستحدث عنه في الفصل التالي.

السلام الداخلي:

إنه لمن المفيد مراقبة تطور مفهوم /الطاوو/ في الفلسفة الطبيعية الذي غالباً ما يصبح «الفراغ»، وخاصة بالنسبة لـ(بادامازامهافا). يُذكر المتصوفون التبتيون كثيراً بأن الطاوو

هو جوهرياً حالة داخلية مثل الد/سامادهي/ والد/نيرفانا/. والحكيم يفوز بسلام داخلي مشابه لطاو الأصل الأول «طاو السماوي والطاو الإنساني متشابهان من حيث الجوهر» و/لاو - تسو/ نفسه يقارن، بطبيعة خاطره، الحالة الداخلية بالماء، رمز الخشوع الصوفي. يحتل الماء الأماكن الأقل ارتفاعاً يجحف ما يحترقه الناس ويتخذ كافة الأشكال ويعكس السماء. لا طعم ولا لون ولا رائحة له.

الطينية السامية مثل الماء.

الماء يحب فعل الخير لجميع الكائنات؛

لا يصارع من أجل أي شكل أو أي وضع نهائي،

ولكنه يضع نفسه في الأماكن المنخفضة التي ما من أحد يريد لها.

وهو إذ يفعل ذلك، إنه صورة للمبدأ.

واقتداء به، أولئك الذين يحاكون المبدأ

يتواضعون ويفكرون ملياً. إنهم الخيرون

الصادقون والأسوياء والفعالون

ويتكيفون مع الأزمنة.

ولا يصارعون من أجل مصالحهم الخاصة،

ولكنهم يسلمون.

لا يشعرون أيضاً بأي تناقض.

تناول الحكمة /٧٨/ في /طاو تي كينغ/ نفس الفكرة

ما من شيء على وجه الأرض أكثر رخاوة وأكثر ضعفاً من الماء.

ومع ذلك ما من شيء يضاهي الماء في تحطيم كل ما هو قوي

وصلب.

الطاو لا يتضب ولا يوصف:

ولكن كل هذا ليس إلا مقارنة. لم نجد بعد مقابلاً غريباً للطاو. ولا شك أن اللوغوس الإغريقي هو الأكثر قرباً منه فيما يخص المحتوى وتداعي الأفكار. بيد أن اللغة الفرنسية تقدم مفردات معادلة تسمح بتوضيح الأفكار والصور التي

يذكرها /الطاو/ بالصينية. إذا ترجمنا فعل /الطاو/ بـ/عَبَّرَ/ أو /انْضَبَّ/ سيكون بمقدورنا الاستنتاج بأن الطاو الحقيقي لا يستطيع أن يعبر عن نفسه وأنه موضوع لا نستطيع إستفاده. أما /الطاو/ اسم للموصوف، فهو لا يوصف ولا ينتضب. وللتعبير عن هذا الذي لا يوصف يستعمل /لاو - تسو/ صورة/ منفاخ الحداد/ الحكمة الخامسة.

الكون، السماء والأرض، مثل المنفاخ

فارغ ومع ذلك لا ينتضب،

بقدر ما يحرك،

بقدر ما يخرج منه،

التقاش حوله عديم الجدوى،

الأفضل الاحتفاظ به.

الإحتفاظ، عدم التعبير عن كل هذه الأشياء، تلك هي أيضاً التوصية التي يبدأ بها /الطاو تي كينغ/.

يمكن ترجمة اسم الموصوف /طاو/ بـ«درب»، «طريق»، «فراغ» ذلك الذي روحانياً، «في الدرب» «سلك الطريق»، «في سفر» «أفرغ الأماكن» هو من يبلغ /الطاو/ الذي، ضمن هذا المنظور، يمكن تفسيره بالفراغ الداخلي... غياب العالم/ وسنقر به من الد/نيرفانا/ الهندي الذي يعني، حرفياً / مخمداً بالريح أو أخمده الريح/ لعل /لاو - تسو/ أراد القول أن الفراغ الذي يمكن أن ينتضب ليس بالفراغ الكامل: السلام الداخلي الذي يمكن أن نعبّر عنه ليس الحقيقي. وهذا مقالته /بادمازامبهافا/ على النحو التالي: «الطاو بلا شكل. لا يوصف».

في كتاب الصين القديمة، ينقل /اماسيرو/ قول /لاو - تسو/: الطاو لا يسيّر ومثل سلف جميع الأشياء.... يوجد شيء ما غير محدد وتام يسبق ميلاد السماء والأرض. باللدائم! ياعدم الشكل! الذي وحده لا يتبدل! الذي يدخل في كل شيء دون أن يفسده! يمكن أن يُعتبر أم العالم.... الطاو العظيم يدخل في كل شيء، تجلده إلى اليمين وإلى اليسار. وجود كل الأشياء يتعلق به بدون أن يمنعه عنها. وبعد أن يتجزأ عمله، لا يطلب الشهرة لذلك... إنه جوهر الأشياء.

نختم هذا الفضل بذكر الاثنتي عشرة حكمة الأولى من /الطاو تي كينغ/

٩

الطاو الذي يستطيع أن يعبر عن نفسه

ليس الطاو المطلق.

الاسم الذي يستطيع أن يسمى نفسه

ليس الاسم المطلق.

.....

الذي لا اسم له: أصل السماء والأرض

الذي له اسم: أم العشرة آلاف شيء

.....

وهكذا من يصنع في ذاته الفراغ

يعرف السر الخفي للحياة

من لا يصنع في ذاته الفراغ

يعرف العشرة آلاف يوم للحياة.

.....

ولكن اعلم أن هذه الاثنين هما واحد:

يُسمى باسمين

يميزان السر الخفي لتجليته

.....

الواحد، هو اذن السر الخفي.

هو اذن ما وراء السر الخفي للسر الخفي،

سر خفي أكثر عمقاً.

من يجتاز بابه

يلرك جواهر الجواهر.

عندما كل إنسان تحت السماء
 يسمى الجمال كل ماهو جميل،
 فإذا بالتبع يولد.
 عندما كل إنسان تحت السماء
 يسمى الطيبة كل ماهو طيب،
 فإذا بالشوور تولد.
 وهكذا، تميز الوجود،
 يقتضي وجود العلم.
 تميز الصعوبة،
 يقتضي وجود سهولة.
 قياس الطول،
 يقتضي وجود قصر،
 وضع نغمة،
 يقتضي وجود صوت.
 السير قدماً،
 يقتضي وجود مؤخره.

.....

اذن الحكيم
 يفعل بالافعل،
 ويعلم باللاقول.
 لا يميز ولا يستطيع اذن أن يستبق الحكم.
 يساعد على تولد «الفكرة» دون أن يعرف بنفسه.
 مايقره ليس إطلاقاً بلافع التفضيل.
 وماينجزه ليس إطلاقاً بلافع المصلحة.

لا يطلب الثقة،
إنّ الرية لا تلهنه.

٣

لا تملح النخبة،
سيكون قلب الشعب متواضعا.
لا تقدر الأشياء النادرة،
وسيكون قلب الشعب مسرورا.
لا تظهر ماهر مرعوب،
سيكون قلب الشعب في سلام.
هكذا يحكم الحكيم:
يضع الفراغ في قلب الشعب
ويملأ بطنه.
يخط الطمع
ويحز المبادئ.
بحيث أن الشعب يلجم الأفكار والرغبات
وأن المتأمرين لا يجرؤون على العمل.
العمل باللائل،
إنه تهمة للعالم.

٤

الطاو فراغ ما من شيء يفضيه.
عديم الشكل، إنه أصل كل شيء.
ياشم كل حد.
ويصل كل حقلقة،
يصحب كل نور.

ويكشف كل ظلمة
الطار مثل الماء النقي.
هو ابن من؟
هو كل ماهو موجود، أب لكل ماهو موجود

٥

الكون؛ سماء وأرض، يترقن:
يعامل جميع الكائنات مثل كلاب لاقيمة لها.
الحكيم يترقن:
جميع الكائنات بالنسبة له مثل كلاب لاقيمة لها.
الكون، السماء والأرض، مثل المتفاح
فارغ ومع ذلك لا ينضب
- بقدر ما يتحرك،
بقدر ما يخرج منه.
النقاش حوله عديم الجدوى
الأفضل الإحفاظ به

٦

روح الوادي لا تموت
اسمها /الين/،
باب /الين/،
جنر السماء والأرض
أطع الطبيعة
الطبيعة تطيعك
يا مكانك أن تعرف منها دون أن تخشى نفاذها

٧

الكون، سماء وأرض، أبدي.
لماذا؟
لأنه لا يعيش من أجل ذاته.
وهذا هو سبب ديمومته.
وكذلك الحكيم: لا يعيش من أجل ذاته
جسده أداة له،
ويحفظ نفسه
أليس لأنه لا يعيش من أجل ذاته
يلغ كمال الطاو؟

٨

ما هو كامل يشبه الماء.
يريد الخير لجميع الأشياء تحت الشمس
لا يناقسه شيء،
الماء يقيم في الأماكن المنخفضة
التي يحترقها الناس.
قريب من الطاو.
من هو كامل
لمسكنه يريد مكاناً منخفضاً،
ولقلبه يريد العمق،
وللفير يريد الخير،
والنقاها يريد الحكم،
والخزم ليتقاضى،
والوقت المناسب ليعمل.

بلون رغبة،
لا عيب فيه.

٩

قوس مشدود للغاية،
جهد ضائع.
سيف مشحون للغاية،
نصل يتأكل بسرعة.
ذهب مكس كثيرًا،
سيد مسروق.
كثير من الكبرياء مكتسبة من الألقاب والثروة،
تحمل خطر العار والضائقة.
المهمة متعبة، اذهب:
الطائر السماوي يتفكر.

١٠

إن اعتنقت الوحدة،
لا يمكن أن تفقد الطاو.
إن احتفظت بـ/يانغ/ وأطلقت الـ/ين/،
فإنك مثل المولود الجديد.
إن ظهرت نفسك،
تبلغ الكمال.
إن كنت تحب الشعب وأنت تحكم الدولة،
تسود دون استعمال العنف.
هل تريد فتح وإغلاق أسوار؟
تأزمك القدرة على أن تكون ذلك الذي يلقى.

هل تريد أن تعرف كل شيء وترى كل شيء؟
 ينبغي أن تصنع في ذاك الفراغ.
 انجب واطعم
 دون أن تريد أن تستعيد.
 اعمل دون أن تريد أن تنجح.
 احكم دون أن تريد أن تتحكم.
 تلك هي الفضيلة الصوفية.

١١

ثلاثون شعاعاً يتقون في القُب
 ولكن فراغ الدولاب هو الذي يجعله قابل للاستعمال.
 من الفخار المعجون صُنع الإناء
 ولكن الفراغ هو الذي يجعله قابل للاستعمال.
 في الجدران، أبواب ونوافذ
 الفراغ يجعل المنزل قابل للاستعمال.
 وهكذا، وجود الأشياء له فضائله
 وعدم وجوده يجعلها قابلة للاستعمال.

١٢

الألوان الخمس تبهر العيون.
 الأصوات الخمس تصم الأذن.
 المناقاة الخمسة تثقل اللسان.
 السباق والصيد يخيّلان الروح.
 الممتلكات الثمينة تؤذي النوم.
 وهكذا يعمل الحكيم:
 الباطني يشغله وليس الخارجي،

الباطني، يُسر به، الخارجي يرفضه.

لقد اعتاد الغربيون التحدث عن الطاوية، وهذا يشير إلى وجود نظام طاوي. ولكن، كما رأينا للتو، لا يوجد نظام طاوي. وإن مثل هذا النظام، بحصر المعنى، لا يمكن تصوره. وإننا نستعمل تعبير الطاوية لأنه أصبح مستعملاً. بيد أنه من الواضح أن الطاوية لا تشكل نظاماً ما يحدد رؤية العالم. وإنما مجموعة من الظواهر الثقافية ينفخ فيها مبدأ الطاو الحية. ويجب أن لا يغيب أبداً عن ذهننا، وإننا نصر على ذلك، أن الطاو لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يقتصر على مجرد مشروع فكر فلسفي. و/لا - تسوا نفسه يعلن:

الأخلاق التي وضعها تُقرأ بسهولة كبيرة

وشخص آخر يستطيع أن يقلدها بسهولة.

بيد أن ما من شخص في العالم قادر على سيرها بالفكر

وعلى كشف جوهرها.

الفصل الثاني اليانغ والتين

أو القطبية
السماء والأرض تتحدان: صورة عن السلام
إلي كينغ/

ال /لي كينغ/:

ال /لي كينغ/ هو أقدم الكتب الكلاسيكية الخمسة (وو كينغ). كان /لاو - تسو/ و/كنفوشيوس/ يذكرانه باستمرار، ويؤكد المؤرخ /سماتشان/ كاتب السير الذاتية للفيلسوفين أن كنفوشيوس قد أتلف ثلاث مخطوطات متتالية من /لي كينغ/ لكثرة مآقرأها.

وكما سبق ورأينا، يطلق اسم الكتب الكلاسيكية، أو الشرائعية، على سلسلة من المؤلفات يصفها الصينيون بـ/كينغ/. وبالمعنى الحقيقي، تعني هذه الكلمة بنية النسيج. ومن فكرة الخيوط المصقوفة بانتظام على النول، يشتق معنى القاعدة والمعيار. إن هذه الكتب هي /كينغ/ لأنها تعرض مذهباً وأخلاقاً. والكثير من التراجمة يسمونها الكتب المقدسة. هذا تعميم، بلا حق، لطابعها الديني. ولربما جاء هذا الخطأ من كون ال/ كينغ/ قد ورد في المجموعة الشهيرة «كتب الشرق المقدسة» لمل الكتاب الذي يستحق، عن حق، هذا الاسم هو كتاب /لي كينغ/، بل بعض أجزائه وحسب، وتبقى عبارة الكتب الشرائعية أكثر ملاءمة، من حيث أنها تتناول مجموعة كبيرة ثقافية تشكل مرجعاً وترتبط بتقاليد شفهية.

إن القسم الأول من الكلمة يشير صعوبة لأن /لي/ يمكن أن تترجم بطرق مختلفة. ويتم تبني عادة كلمة /تبدلات/ بينما يتحدث الانكليز عن كتاب /التغيرات/ إلا أن هذا التقريب لا يرضي تمام الرضى. ولعل /تحولات/ هي أقرب إلى المعنى الأصلي.

كما يمكن ترجمة /لي/ أيضاً بالتطورات، تجليات، غمو، وبالفعل، فكتاب /لي كينغ/ يشرح كيف أن جميع الأشياء تأتي من الكائن الأصلي وكيف تعود إليه. وبالفعل، لالتحصى الشروحات الفلسفية لهذا المؤلف الذي يضع أصله في أسحق عهود التاريخ.

لنرى، بادئ ذي بدء، التفسير الطاوي. إذ تقدم حكم الطاو من ٤٢ - ٥٣

المفتاح. يعرض /أو - تسو/ في هذه الفصلين كوزمولوجيا (علم الكونيات) التي نجدها عند الكثير من الحضارات القديمة وهذه بداية الحكمة ٥١:

الطاو يمنحها الحياة،

الـ/تي/ يقيها على قيد الحياة،

العالم المادي يعطيها الشكل،

والظروف تنجزها.

يتضح هذا النص، الذي يبدو مزيغاً، إذا ما قارناه مع بعض الشروحات القديمة والحكم المشابه الواردة في مواضيع أخرى.

إن /الطاو/ هو الأصل الأول لجميع الأشياء، الكائن المجرد المستقل عن الظواهر والـ/تي/ هو التجلي المباشر للـ/طاو/ في العالم المرئي. و/طاو/ الحكيم هو السلام الباطني. و/تي/ الحكيم هو سلوكه. الـ/تي/ يتسم بالوجدانية: وهذا ما يسميه الهندو /ادفتيا/ «عدم - الإزدواجية» (الضد يظهر في شكاة فوست لقوته: «بالأسف، نفسان تسكتان صدري»)

إن العالم المادي هو عالم تعارض الأضداد، كما قرأنا في الفصل الثاني من كتاب /طاو تي كينغ/. ما ينبغي فهمه من كلمة الظروف هو جدلية القوى والتأثيرات التي تؤدي إلى كثرة المعالم. عندئذ، سنفهم بصورة أفضل الحكمة ٤٢ التي تبدأ على هذا النحو:

الطاو خلق الواحد،

الواحد خلق الاثنين،

الاثنان خلق الثلاثة،

الثلاثة خلق جميع الكائنات.

إن الـ/تي/ هو التجلي المرئي للطاو ويطابق هنا الواحد الذي يخلق القطبية التي، منها عن طريق الإنجاب، تولد أشكال الحياة. الثلاث ترمز إلى الطقولة وجميع الذرية. إن جدلية هذه العناصر تولد العدد الوافر من الكائنات.

نجد صوراً مماثلة عند أرسطو وعند الباطنية العبرانية القبلانية وعلى حسب أرسطو، جميع الكائنات الحية مادية، بنوية، متحركة، وموجهة نحو نهاية، ويميز أرسطو أيضاً عمل العلتين: مبدأ مادي ومبدأ صوري الذي يحددها بالكلمتين اليونانيتين. ديناميس

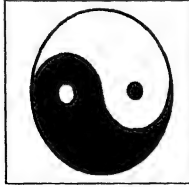
«القوة» وايدوس «صورة» مع ذلك، فالكائن الحسي لا يقتصر على صورة ومحتوى. إذ له أيضاً حركة ونهاية، وبدون الغائية قد تصبح الحركة فوضوية مثل المادة بدون شكل، يسمى أرسطو Energau «نشاط» مبدأ الحركة entelechea مبدأ الغائية.

في الإصحاح الأول للتكوين، تقوم رواية التكوين على ثلاثة أفعال «خلق» و«كون» و«عمل». وبصدد الإنسان، تحفة الخلق، استعملت أيضاً الأفعال الثلاثة «في البدء خلق السموات والأرض... فعمل الله التورين العظيمين. التور الأكبر لحكم النهار والتور الأصغر لحكم الليل.... وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض». وانبثاقاً من ذلك تميز القبلانية حقل الخلق وحقل التكوين ولقد سبقت هذين الحقلين مملكة الفيض حيث كشفت أسماء الله العشرة. هذا البناء يجمع بين المذاهب القديمة والثيوصوفية ونظرية اشراقية دينية موضوعها الرب، وبين اللاهوت التوراتي. «اشعياء السفر ٤٣: بكل من دعي باسمي ولمجدي خلقتة وجبلته وصنعتة». يتم الفيض بالكلمة الأصلية «شانغ طاو» والخلق يفصل الأضداد: السماء والأرض «ين ويانغ». ولعله يجب فهم: الوحدة غير المرتبة «الإله الخفي». الطاو يجب أن تعمل لنفسها وحدة مرتبة ومنها ينشئ جدلياً كل ماتبقى. لا بد أن /لاو- تسو/ قد واجه هذه المسألة بما أنه يقول في الحكمة الرابعة من /طاو تي كينغ/: «لا أعرف من أين ينشئ الطاو (ابن من) إنه الصورة الأصلية للإله (الرب في السماء «شانغ تي»)

ال /تاي كي/:

خلال التطور اللاحق للفلسفة الصينية، خصصت كلمة «تي» حصراً لتسمية سلوك الحكيم (منعود إلى ذلك في الفصل ما قبل الأخير). كما أن تعبير /تاي كي/ و/تاي شو/ اللذين يمكن ترجمتهما بالمطلق الكبير والفراغ الكبير قد فرضا تقسيهما في الفلسفة الطبيعية.

إن /ال/تاي كي/ هو، في الواقع، المبدأ الموجه لل/ي كيغ/ مع أنه لم يذكر فيه أبداً: وقد استخدم جميع الشارحين هذا التعبير لتسمية الوحدة المرتبة: ويمكن ترجمته بالطبيعة، وحرقياً ماهو مولود، ماهو مولود من الطاو. لتتذكر الحكمة الأولى لل/طاو تي كيغ/ التي تتحدث عن الطاو بلا اسم والطاو المسمى. الطاو المسمى هو تاي كي. وفيما بعد، اعتبر الطاويون أن /تاي كي/ يسبق الطاو، هذا المفهوم يقابله مفهوم تاريخ الأصول الذي يتحدث عنه العهد القديم في التكوين «الإصحاح الثاني» (خلق الرجل والمرأة).



إن الصورة البيانية الأكثر شهرة للد/تاي كي/ هي الدائرة حيث يفصل خط على شكل S القسم الأبيض عن القسم الأسود. القسم الأبيض يرمز للعنصر الذكري أو / يانغ/ والأسود للعنصر الأنثوي أو /يِن/ تظهر نقطة بيضاء في مركز القسم الأسود وتظهر نقطة سوداء في مركز القسم الأبيض. وهذا ما يذكر بأن كل عنصر ذكري يحتوي على مبدأ الأنثوي وبأن كل عنصر أنثوي يحتوي على عنصر ذكري، ويستشهد الصينيون العصريون، بهذا الصدد، بعلم الأحياء الذي أثبت أن عند كل رجل هرمونات أنثوية وعند كل امرأة هرمونات ذكورية. وبدقة فلسفية أكبر، يمكن مقارنة هذا الرمز بإسطورة الخنثى الأفلاطونية في المأدبة: كل واحد منا هو إذن النصف المتسم للإنسان الذي، كما قُسم، يشبه المسطرة المربعة: «كائن واحد صنع منه كائنان». تقول التقاليد الصينية القديمة أن القسوة تنتج من الد/يانغ/ بدون الد/ين/. والعاطفية من الد/ين/ بدون الد/يانغ/. وهذا يشكل مبادئ تربية: الأب السيء «الغول» الأم السيئة «الأم الشرسة» هما شخصيتان حصراً إما/يانغ/ أو /يِن/ لا تحققان التوازن الداخلي بتضادهما ولهذا السبب فهما غير قادرين على الحب.

الأضداد والتناقض:

إنه من المناسب أن نميز بين مفهوم الأضداد ومفهوم التناقض. فالأضداد هي أضداد موضوعياً ويجب أن تتحد. والتناقض هي ذاتياً تتناقض ويجب أن تتفق السماء والأرض، الرجل والمرأة هم أضداد الخير والشر، المباركة واللعة هي تناقض. وإذا وجدنا في التكوين «ورأى الله ذلك أنه حسن» وليس «قال الله إن ذلك حسن» فذلك

لأن الخير، كما هو معروف، ينطوي على معرفة الشر. وتقول الحكمة الثانية للطاو تي كينغ:

كل الناس عندهم مفهوم الحسن، وعلى التقيض، لديهم مفهوم ما هو غير حسن. ستكون لدي الفرصة للعودة لهذه المسألة في الفصل الختامي. ويكفي هنا الإشارة بأن الحكيم يحاول التحرر من تكافؤ التناقض ولا يتوصل إلى ذلك إلا بانحداد الأضداد وهذا ما يعبر عنه الفصل الحادي عشرة من *لي كينغ*. والمشكلة الكبرى تكمن في إيجاد التوازن بين *اليانغ* و *الين*. ونستشهد بكلمات *الاولو - تسو* يجب الإحساس بال *اليانغ* و *الإحتفاظ بالين*.

أصل *اللي كينغ*:

مثل *الفيدا*^(٥) وأسفار موسى، أن كتاب *اللي كينغ* موجود في شكله المكتوب، منذ حوالي ثلاثة آلاف عام، ولكن النص المكتوب يروي تقليداً متوارثاً خلفاً عن سلف غير مدون، يعود قدمه إلى مالا يقل عن عشرة قرون، وهو، بشروحاته اللاحقة التي لا تحصى عبر عدة قرون، في نفس الوقت، نص ديني، نظام فلسفي وكتاب عرافة وبالتالي، وإلى حد ما، كتاب علم نفس.

إن *اللي كينغ* هو جوهر لفهم الحضارة الصينية: وما انفك الفلاسفة ورجال الدولة والقانون يستلهمون منه. وما يزال نظام ثلاثي الخطوط «*تريغرام*» وسلسلي الخطوط «*هكسا غرام*» في *لي كينغ* يشكل مصدر جميع التصنيفات من تصنيفات الفصول إلى تصنيف الآلات الموسيقية.

لم تظهر الأهمية الكبرى لهذا المؤلف للوهلة الأولى ولقد لزم دراسات طويلة وأعمال صينية كبار مثل أعمال الفرنسيين *أدوار شوفان* و *أهنري ماسبيرو* والإنكليزي *أجيمس ليفل* والألماني *ريتشارد فيلهلم* و *كارل غستاف يونغ* والهولنديين *هنري بول*، *إدواندك* ليكشفوا لنا هذه الثروة.

تسب أقدم التقاليد الصينية *اللي كينغ* / *دا فو هي تي* / الإمبراطور الأسطوري، أب الثقافة الصينية وينسب إليه الصينيون كل ما ينسبه الإغريق لـ *كارموس*: إختراع الآلات الموسيقية، والكتابة وفن العرافة. وتصوره الرسوم القديمة مع إشارات العرافة

(٥) فيدا: كتب الهنوس الدينية الأريمة.

الثمانية لكتاب وسطاء الوحي: يحمل تنوعات جمعجية التي هي عبارة عن أمارات الشيخوخة والحكمة. كما نسب أيضاً لمؤلفين آخرين مثل الملك /وان/ والدوق /تشيو/ وكنفوشيوس!

كان كنفوشيوس يُعتبر المؤلف الرئيسي والشارح لـ/ي كينغ/ بيد أنه يعزى إليه اليوم دور أصغر بكثير، وبالفعل، إن تاريخ هذا الكتاب معقد للغاية ولقد أعطى الفرصة للتأملات الأكثر سموً وللممارسات الأكثر شبهة على حد سواء.

ويبدو أن أفضل نص مفسر له هو النص الذي تم إعداده في ظل الإمبراطور/ كانغ هي/: تشواي شن تشوان.

العرافة:

ينبغي، على الأرجح، البحث عن مصدر الـ/ي كينغ/ في ممارسات العرافية لقدماء السحرة الصينيين. إذ كانوا يستعملون نوعين من العصي الكاملة والمتكسرة. والجرمانيون أيضاً كانوا يستخدمون عصي من الزان ليجلوا صوت الإله فوتمان الذي يعلم. وكان يُعتبر مايجلونه حكم السماء. كان الصينيون يسمون /يانغ/ (العنصر الذكري - الخالق) العصا الكاملة والـ/ين/ (عنصر اثوي - متلقي) العصا المتكسرة.

إن تركيب عصي الـ/يانغ/ والـ/ين/ مع بعضها البعض يعطي ثمانية ترigramات (ترigram يتألف من ثلاثة خطوط تمثل العناصر الثمانية (الحجر، المعدن، الحريق، الخيزران، الخشب، الجلد، الفراغ، الأرض).

هكذا، ثلاثة مرات /يانغ/



تعني السماء /تشان/ وثلاث مرات /ين/



تعني الأرض (قوان). السماء هي رمز القوة الخلاقة والأرض رمز السلبية. وفي الإطار العائلي/ تشان/ تعني الأب والـ/قوان/ تعني الأم. وخاصية الأرض هي أن

تكون قوية (قطعة واحدة) وخاصية السماء هي أن تكون مخصصة، لينة الجانب حليلة. ومن هنا فإن المواد المشاركة لهذين التريغرامين هي الحجر من جهة والطيني من جهة أخرى.

السماء تخصب الأرض بالمطر والتلج إذن، هي مقر الرطوبة والأرض مقر اليبوسة، إننا نجد هذه الرمزية في الثقافات الأخرى. ففي التوراة، على سبيل المثال، الأرض هي دائماً اليابسة بالنسبة للماء. وكلمة «أرض» ربما تعني «اليبوسة».

الأرض والسماء هما ضدان، وهذا مايعبر عنه موضوع لتريفرامان وهنا نرى ظهور الوظيفة الإيحائية للإشارات.

لتفحص زوجاً آخر النار والماء. نعرف أن الإشارات ستكون متممة لبعضها البعض. ولكن هنا تبرز صعوبة. لقد اعتدنا أن نرى في النار عنصراً ذكرياً وفي الماء عنصراً أنثوياً. أما بالنسبة للصينيين، فيرون العكس، وبالفعل، يقول لنا الصينيون القدامى أن النار هي عنصر أرضي متدب في السماء وأن الماء هي عنصر سماوي متدب على الأرض. لنفكر في اللحم والمطر: تثقب اللحم من الأحشاء التي تشكل أعماقها أثوفاً، هنا في حين أن المطر هو هدية من السماء والماء يميل إلى التبخر في حين أن نار السماء، البرق، تعود إلى الأرض.

الشكلان الخطيان هما



الـ/قوان/ الماء والـ/لي/ (النار) يتخللان في الابن الثاني والابنة الثانية. الماء تعبر عن السماوي على الأرض



والنار تعبر عن الأرضي في السماء.

ومن المفيد أن نذكر هنا بأساطير النار القديمة. ففي الأساطير الاغريقية، يسرق / بروميثوس/ النار من السماء، فيعاقبه الـ/زفيس/ على هذه الجريمة، والعقاب بحد ذاته جدير بالملاحظة.

كان نسر ينقض كل يوم على /بروميثوس/ المسمر على صخرة ويأكل كبده الذي كان يتجدد خلال الليل. لأن الكبد، كان بالنسبة للقدماء، العضو حيث الدم، أي النار الداخلية، يتجدد كل يوم. يكبل العقاب الإلهي /بروميثوس/ بالسلاسل على الأرض: ويحظر عليه الذهاب مستقبلاً لأخذ النار من السماء. إلا أنه يحتفظ صورياً بقدرتها: إن كبرياء /لوكي/ (وميض، لهب) و/الموسيفير/ (حامل النور) تقوم أيضاً على سوء استعمال النار. وتريد التقاليد اليهودية أن تعاد النار (نشاط، طاقة) للرب في اليوم السابع حتى توضع ثانية للإستعمال في اليوم الثامن. إن جميع المعتقدات تقدم نقاطاً مشتركة. والأمر الجوهري، بالنسبة للصينيين، هو أن التوازن الكوني يتطلب وجود عنصر أرضي في السماء وعنصر سماوي على الأرض. والخطيئة هي إفراغ السماء من كل نار أو الأرض من كل ماء. والحرائق الكبرى والجفافات الكبرى يُنظر إليها، في الصين، على أنها عقاب لإختلال التوازن الإنساني.

إن دراسة التفرعات تبين أن النار «الابنة الثانية» تتعلق بالسماء (الأب) في حين أن الماء «الابن الثاني» يتعلق بالأرض «الأم». وهذا، دون شك، أقدم أشكال عقدة أوديب: تعلق الابنة بأبيها والابن بأمه.

يشكل الرعد (تشين) والرياح (شوان) زوجاً آخر من الأضداد. ويمثلان على النحو التالي:



الرعد ذكرى «الابن الأول»؛ الرياح «الطقس الذي يصنعه» أنثوي.

يشير الصينيون إلى الطابع الأنثوي للطقس /غريب ومتقلب/ وهكذا صرامة الرعد تقاوم مرونة الرياح: المواد المطابقة هي الخيزران والخشب الأخضر.

يلاحظ المرء أن رمز الأبناء يحتوي دائماً على خط ذكرى وخطين أنثويين «خط كامل أو قوي وخطان متكسران ضعيفان» في حين أن رمز النبات، على العكس، يحتوي على خطين ذكرين وخط أنثوي واحد. وهذا مايفسر، في النفسية الصينية، بكون الأم تربي دائماً الابن والأب يربي دائماً الابنة.

ويشير الخط الجنسي دائماً إلى الصفة المهيمنة: خط قوي للابن وخط ضعيف للابنة.

للتفحص من جديد رمز الرعد



ماذا نقرأ فيه؟ الرعد هو صوت السماء الذي يعبر الكرة الأرضي. لتذكر عاصفة
سيناء وآلهة الرعد في العصور القديمة (دونار، زفيس، جوبيتر، اندرا). وبالمقابل، فإن
الرياح هو صوت الأرض في السماء.



الزوج الأخير يتألف من «الجيل»/ كين/ و«البحيرة»/ قوي.
الجيل هو السماء التي ترتكز على الأرض والبحيرة هي الأرض فوق السماء. وتؤكد
حكمة قديمة أن التكافؤ بين الجيل والبحيرة يجلب السلام للأرواح المضطربة. وفي
العائلة الصينية، الجيل والبحيرة يتمثلان بالابن الثالث والابنة الثالثة.
والآن، نستطيع أن نضع لوحة لهذه الرموز:

ترايغرام	الصفة	النشاط	الرمز	المادة	العلامات المطلوبة
	خالق	قوي	سماء	حجر	أب
	متلقي	مخلص	أرض	طيني	أم
	صاعد	محرك	رعد	خيزران	الابن الأول
	مدوخ	خطر	ماء	جلد	الابن الثاني
	هادئ	مريح	جبل	قرع	الابن الثالث
	حنون	نافذ	رياح	خشب	الابنة الأولى
	مرعب	مضيء	نار	حريز	الابنة الثانية
	فرح	مفرح	بحيرة	معدن	الابنة الثالثة

نستطيع ترتيب ثمانية ترigramات (ثلاث خطوط) لتشكيل أربع وستين مجموعة سداسية الخطوط، تتألف كل مجموعة من ترigramين كان العرافون القدماء يكترون من إمكانيات التفسير بإعطاء مغزى خاص للخط المهيمن.

باعتبار أن المجموعة السداسية الخطوط «مصدر» يتألف من ترigramين «ماء» و«رياح» (أو غابة)



نميز ثنائي روايات ممكنة وفقاً للخط الذي يعتبر مهيماً بعد أن يركب العراف مجموعة سداسية الخطوط، يطلب من شخص في صفوف الحضور أن يذكر رقماً لا على التعيين أدنى من رقم ٧. لنفترض أن الرقم المقترح هو ٣، يجيب العراف «دون عجلة ودون إبطاء» وينصح صاحب المشورة بالقيام بعمله بهدوء ولكن دون أن يغرب عن باله الهدف.

وبهذه الطريقة يمكن استخلاص مئة وأربعة وثمانين اقتراحاً تشكل نفس القدر من التشخيصات.

كيف تتركب مجموعة سداسية الخطوط؟ إنها طريقة سهلة تذكر باختبارات الإسقاط في علم النفس وتقوم على تقديم لطالب المشورة حزمين من العصي: حمراء وورقاء. يختار طالب المشورة العصي وتؤلف مجموعة سداسية الخطوط، عندئذ يطلب منه إختيار رقم ومن ثم يتم الرجوع لتفسير الـ/ي كينغ/.

كان كبار العرافين يمارسون فن مجموعات من إثني عشر خطاً، ويذكر أنه كان هناك قلة تعتبر سيادة في فن الأربعة وعشرين خطاً. ولدى قراءة أعمال هؤلاء الحكماء، نلاحظ أن طريقة العرافة استطاعت أن تعطي طريقة في علم النفس يمكن أن تنافس في عمقها طريقة التأمل الوجودي، والتحليل النفسي أو الفينولوجية^(٥) حول الطبيعة الإنسانية.

وهناك طريقة أخرى لإستشارة الـ/ي كينغ/ تقوم على جعل طالب المشورة أن

(٥) فينولوجيا: علم الظاهرات (دراسة الظاهرات كما تبدو بغض النظر عما وراءها من حقائق).

يذكر ستة أرقام. تكتب الأرقام على شكل عمود. الأرقام المزدوجة هي *ال/بي* / والمفردة *ال/كينغ* / يجب أن تُنطق الأرقام بأسرع ما يمكن. ثم يطلب منه ذكر رقم بين ١ و٦. وهكذا يحدد الرقم الخط المهيمن. ثم يركب مجموعة السداسية الخطوط ولكن يتم عد الخطوط من الأسفل إلى الأعلى. يشير *فرويد* / في كثير من المناسبات إلى المفزى اللاواعي للأعداد. ومجرد ذكر أرقام صدفة يكشف شيئاً ما من نفسية الإنسان. لقد قمت شخصياً: بالآلاف التجارب التي أفتحتني بالقيمة التحليلية *لل/بي كينغ* /. لقد حرصت دائماً على عدم استخدام الترد أو أية تقنية أخرى من تقنيات الصدفة حتى أطلق الحرية لآليات الإسقاط. وسيندهش المرء أكثر لقدمها أكثر مما يندهش لفعاليتها. قبل ألفي عام من الميلاد، كان الناس يمارسون، إنطلاقاً من رمز بسيط، نوعاً من علم النفس التطبيقي يترجم بنصائح ربما كريمة ولكن ممتازة في أغلب الأحيان.

لا أعتقد أنه ليس المفيد توضيح كل ذلك بحالة شخصية. لقد زرت، ذات يوم، معرضاً للفن المعماري في جنوب أفريقيا لقد إستحوذني التباين العنيف بين المزارع الناصعة البياض والمشهد الطبيعي القاحل. لقد رأيت في ذلك صدى للتعارض بين البيض والسود في صفوف السكان. استشرت *ال/بي كينغ* /، فتوصلت لتشكيل مجموعة السداسية الخطوط الثانية عشر:



ال/بي / تعني السكون، التوقف، ويتألف من التريغرامين «السماء ثلاثة خطوط مختلفة»، «الأرض ثلاثة خطوط منكسرة» قمت، في الحال، بالتفسير التالي لهذا التركيب: مجموعة «سماوية» تريد أن تكون متفوقة. تسود على «هي فوق» مجموعة «أرضية» (تعامل كدنيوية). وإلحكم كيف كان تفسير *ال/بي كينغ* / (ساضع بين قوسين الشروحات الشخصية):

السماء والأرض منعزلتان الواحدة عن الأخرى. كل شيء متجمد، لا يوجد أي تبادل بين الأعلى والأسفل. على الأرض «في المجموعة الدنيا» يسود الإرتباك والفوضى. في الأسفل الظلمة وفي الأعلى النور. (في البداية، كان التريغرامان

متجاورين ولم يتوضعا فوق بعضهما البعض إلا فيما بعد. لذلك كانت الشروحات القديمة تتحدث عن جانب باطني وجانب خارجي. ومن جهة أخرى تظهر التقيضة ظلمة نور، أسود - أبيض واضحة بصورة مدهشة، تقيضة قورنت عبر كافة الأزمنة بال/لي/ وبال/يانغ/). تحت، ضعف؛ فوق، قساوة. في الأسفل: الطبقات الدنيا؛ في الأعلى: الطبقات العليا. يبدأ ناس الطبقات الدنيا صعودهم ويبدأ ناس الطبقات العليا إنحدارهم. ولكن الناس الذين يمسون بزمام السلطة لا يتركون مبدأهم يغيب عن بالهم، وعندما يصبح نفوذهم محدوداً، يظلون أوفياء لمبدئهم ويختارون الإنفصال «الفصل العنصري. تميز عنصري».

لقد درس دائماً مبدأ التناقض على الصعيدين الاجتماعي والجماعي والتاريخي من جهة، والنفسي والفردى من جهة أخرى.

وهكذا، ظاهرياً، (المعادل الخطي لـ «فوق»، «في الأعلى») أولئك الذين يمسون بزمام السلطة هم قساة ولكنهم باطنياً ضعفاء، وبالتالي فإن قوتهم، بحكم الضرورة، عدوانية. وإتنا نجد أنكاراً قريه منها في الثقافة الأوروبية المعاصرة ليس فقط في الفلاسفات الجدلية، وإنما أيضاً عند /تويني/ عندما يتحدث عن البروليتاريا الدنيا، على أنها سبب انحطاط الدول أو أيضاً في نظرية الظل عند يونغ: الظل هو الجانب المظلم للشخصية الذي يعده الإنسان لأنه يريد أن يقدم للعالم «قناعاً مضيقاً».

وحسب الكثير من علماء النفس - الاجتماعيين، ربما تعود الكراهية التي يكنها الرجل الأبيض للأسود لتقمص الرجل الأسود لظل الرجل الأبيض، مثلما كان الخوف في القرون الوسطى من الشيطان «الرجل الأسود» ومثلما هو الآن الخوف، في القولكلور الشعبي، من الأب/فونارد/ ذي الوجه المطلي بالسخام. ومن هنا يأتي، على وجه الخصوص، نفور الأسياد البيض من تشكيل مجتمع مع عبيدهم الملونين ورغبتهم العنيفة في الإبقاء على الحاجز بينهما. ويدعو أن /اللي/ كينغ/ يقول: إن غياب العلاقة «مهما كانت» بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا يشكل السكون: المثل الأعلى والواقع، الثقافة والمجتمع، الحكومة والشعب، كل هذه أمور لا تتطور إلا إذا شكلت مجموعة مترابطة، وكلاً متلاحماً يمكن أن يُعبر عنه فكرياً بمفهوم الوحدة الشاملة، إن «إنفصال» أناس الطبقات العليا لا يمكن أن يدوم: يجب إزالة الطابع المخادع لإسقاط الظل، ولكن ذلك لا يأتي من تلقاء نفسه والشرح المتعلق بالخط السادس لمجموعة السداسية الخطوط /لي/ (الخط العلوي) يؤكد:

المكون ليس أبدياً،
ولكنه لا يتوقف من تلقاء نفسه.
يجب أن يأتي رجل عادل ليضع حداً له.
إن الخيلة ضرورية لإعادة تنظيم العالم.

الإنسجام الكوني:

في نطاق مختلف تمام الاختلاف عن الأفكار، لقد أقيمت صلة بين تريغرامات الـ /
ي كيغ/ وبين الآلات الموسيقية. تتألف جميع حقائق الوجود من الإنسجام الكبير،
وفي اللوحة التالية سجلنا قبالة التريغرامات الثمانية العناصر الثمانية والآلات الموسيقية
الثماني المطابقة.

تظهر العلاقات بين العناصر والآلات بوضوح. إلا أن العلاقات بين التريغرامات
والعناصر تفرض نفسها بصورة أقل وضوحاً، ويساعد إعطاء مثل على فهم أفضل
لعملية الإشتقاق. يمتلك حرير الصين «لهباً داخلياً، نستطيع إطلاقه باللمس» شرارة

آلة	عنصر		تريغرام
حجر رنان	حجر	سماء	
جرس معدني	معدن	بحيرة	
آلات وترية	حرير	نار	
الناي	خيزران	رعد	
صناجات	خشب	غابة	
طبل	جلد	ماء	
الأرغن	قرع	جبل	
أوكرينا	تربة	أرض	

كهربائية ساكنة تتخزن بالاحتكاك، ولهذا السبب يرتبط الحرير بالنار. وتولد محاكمات ذهنية مماثلة لتداعيات مرتبطة بالجهات الأصلية والفصول. الطقس حار في الجنوب والصيف أيضاً حار ومن هنا يأتي الترابط مع النار. وعلاوة على ذلك، يرى الصينيون أنه من المناسب العزف في فصل الصيف على القيثارة.. آلة وترية من الحرير.

وحتى يتاح للقارئ أن يكون فكرة أكثر كمالاً عن *اللي كينغ/ سنبحث في الفصل المرتبط بالفصل الثاني عشر أي الفصل الحادي عشر حيث تقع الأرض فوق السماء.*

النصوص القصيرة هي أجوبة وسيط الوحي والنصوص الطويلة هي شروحات.

تاي /السلام/



فوق /القوان/ المتلقي، الأرض.

تحت /التيان/ الخالق، السماء.

يقع المتلقي الذي تتجه حركته نحو الأسفل فوق. ويتواجد الخالق الذي تتجه حركته نحو الأعلى في الأسفل. تتلاقى تأثيراتهما وتنسجم/ بحيث أن المخلوقات تتكاثر وتزدهر. والرمز يعود إلى أول الشهر الأول (شباط - آذار) وهو الشهر الذي تحضر فيه قوى الطبيعة ربيعاً جديداً.

الحكمة:

السلام، الصغير يتعلم. الكبير يقترب.

مجدد، نجاح.

الرمز يعود إلى وقت من السنة يبدو فيها أن السماء قد نزلت على الأرض. وهكذا تتحد قواهما لينسجام جميع، فينجم عن ذلك السلام المباركة لكافة المخلوقات في العالم الإنساني. إنه وقت الاتحاد الاجتماعي. الطبقات العليا تهتم بعناية وعطف

بالطبقات الدنيا؛ والطبقات الدنيا والناس البسطاء يشعرون بالتسامح إزاء الطبقات العليا: تهذب الخصومات والضعفات.

النور في الداخل، في المركز، في نقطة التوازن. الظلمة في الخارج. وهكذا يستطيع النور أن يعمل بقوة وتستسلم الظلمة له من أجل خير الجميع. يتسلم الطيبون المراكز الهامة والسلطة. وحيد، يتحسن السيئون تحت تأثيرهم. وروح السماعة تلهم الإنسان. والحسية بذاتها تتعرض لهذا التأثير ولا تحتل إلامكانها الطبيعي. صغار الناس والضعفاء والأشرار يذهبون. والكبار والأقوياء والطيبون يتسامون. الرمز يجلب السلام والنجاح.

الصورة:

السما والأرض يتحدان: صورة السلام.

وهكذا، يوزع الملك ويكمل مجرى السما والأرض؛ يدير وينظم هبات السما والأرض، بطريقة يسعف فيها الشعب.

السما والأرض يقتربان من بعضهما البعض ويوحدان عملهما، فينجم عن ذلك حقبة من الرفاهية العامة. يجب على مالك الناس أن يوزع تيار القوة هذا ويفعل ذلك بالقسمة. وهكذا يقسم الإنسان الزمن إلى فصول والفضاء إلى جهات الرياح. هكذا تصبح الطبيعة ووفرة ظواهرها محدودتين ومسيطر عليهما. ومن جهة أخرى تحتاج الطبيعة للمساعدة ويتم ذلك بتكليف المحاصل مع الطقس والمكان المناسبين. وعلى هذا النحو يزيد المرء الإنتاج الطبيعي. إن هذا النشاط الذي يساعد الطبيعة ويرغمها، يفيد الإنسان.

الخطوط الخاصة:

عندما تسقط الحركة على الخط الأدنى، فهذا يعني

إذا اقتلعتا لتجليات، كل المرة تلتحق بها.

كل حسب طريقته، المشاريع تؤمن الازدهار.

خلال حقبة الازدهار، الرجل الكفو للدعو لتولي منصب يجذب إليه أناساً من قيمته. وكذلك الحال، عندما تقتلع حقبة من التجليات، تقتلع أيضاً الجدور وتقضي على اللدرة بكاملها. خلال الحقبة المائلة، يرى الرجل حقل عمله يتسع أمامه، وينشغل ذهنه بالرغبة بزج نفسه في العالم وبالعمل فيه بجدية.

عندما تسقط الحركة على الخط الثاني، فذلك يعني:

تحمّل بحلم الناس الأفظاء،

اعبر بجرأة المجازة،

لا تتوجّل أي شيء إلى الغد،

هكذا يستطيع المرء أن يظل معتدلاً.

في أزمنة الإزدهار، إنه لأمر جوهري، من كافة وجهات النظر، أن يمتلك المرء نفساً عظيمة تمكنه من تحمل حتى الناس بلا ثقافة وبلا كرامة. فالخرفي الجيد يعرف استخدام أية مواد، ويجد للمواد الأكثر تواضعاً بعض الاستعمالات. ولكن بعد النظر هذا لا يعني، بأي حال من الأحوال، الإهمال أو الضعف. ومن المناسب، تحديداً، أثناء حقب الإزدهار أن يكون المرء مستعداً للمجازة بعمليات وإن كانت خطيرة مثل عبور نهر ذي مجازة على سبيل المثال. ومن الأهمية بمكان عدم تأجيل أي شيء للغد. والحرص، باستمرار، على كل شيء. ويجب الحذر، بصورة رئيسية، من روح التحزب وتجنب الإرتباط بطفقة، يصل الرجال الأكفاء معاً للوظائف القيادية. ومع ذلك لا يجب عليهم أن يرتبطوا فيما بينهم لتشكيل مجموعة منزلة. يجب على كل امرئ أن يقوم بواجبه. وبالعمل على هذا النحو، يصون نفسه من الخطر الذي يخفو في حقب السلم: خطر التراخي والتفكك. هكذا يكون المرء معتدلاً.

وعندما تسقط الحركة على الخط الثالث فهذا يعني:

ما من سهل إلا وتبرز بعده ثلة وما من رحيل إلا وتليه عودة.

من يظل ثابتاً أمام الخطر لا يتعرض لأي لوم.

لا تأسف لهذه الحقيقة، تمتع بسعادتك

طلالاً أنك تمتلكها.

كل ماهو أرضي يخضع للتغيير. الإنحطاط يلي دائماً الإزدهار. هذا هو التاموس الثابت على الأرض. يمكن إبعاد الشر ولكن ليس إزالته بصورة دائمة فهو يظهر من جديد. يمكن أن تثقل هذه القناعة كاهل الإنسان، إلا أنه يجب أن لا يدعها تقفل ذلك يجب أن تجنبه هذه القناعة من أن يدع السعادة تعمي بصيرته. إن ظل واعياً للخطر، سيكون يقظاً ولا يرتكب الأخطاء. وطلالاً ظل

كائه الحميم أقوى من السعادة السطحية. يسيطر على مصيره والسعادة تظل وفية له.

وعندما تسقط الحركة على الخط الرابع، فلذلك يعني:

دون تبجح بثرواته، يضع المرء نفسه في مستوى قريبه بإخلاص ودون ريبة.

خلال الحقب التي تسود فيها الثقة المتبادلة، يتآخى أصحاب المقامات العليا مع أصحاب المراتب الأدنى وذلك ببساطة ودون تبجح بثرواتهم. والظروف هي التي تفرض عليهم هذا التقارب، وتنتج دمائهم عن قناعتهم الشخصية. إن مثل هذا التقارب ليس فيه أي شيء مصطنع.

وعندما تسقط الحركة على الخط الخامس، فلذلك يعني:

الملك /بني/ تزوج ابنته،

وينجم عن ذلك نعم وبركات

الملك /بني/، إنه /تانغ/ المنجز، أصدر مرسوماً يقضي بأن على الأميرات الإمبراطوريات إطاعة أزواجهن مثل بقية النساء مع أنهن أسمى مرتبة من أزواجهن وهنا، أيضاً، تلميح للإتحاد بين الأعلى والأسفل الذي يوفر السعادة والإزدهار.

وعندما تسقط الحركة على الخط السادس، فلذلك يعني:

أسوار المدينة تنهار في الخندق،

لأنهم الآن إلى جيوشك.

طبق أوامرك في مدينتك.

التمرد يتحول إلى إذلال.

الصدمة المرتدة التي كان يعلن عنها وسط الرمز قد حدثت للتو، فأسوار المدينة تسقط في الخندق الذي انتصب منه. القضاء والقدر. وفي مثل هذه الحالة، من الأنسب أن يستسلم المرء لمصيره. والشيء الوحيد والواجب عمله هو أن يبقى، ينتهي ببساطة، ضمن الحدود المتواضعة لدائرته. فالمقاومة والتمرد، لاتفعل سوى زيادة الوضع خطورة وقد ينتج عن ذلك الإذلال.

هكذا يتكلم الداي كينغ/.

لنفترض الآن أن زيون العراف قد ذكر الأرقام التالية ١٤، ١٨، ٨٢، ٣، ٣٥، ٩٧، ٤. فهذه ترجمتها.



رمز السلام؛ الخط الرابع.

وهذا هو الشرح. «دون تبجح بثرواته، يضع المرء نفسه في مستوى قريبه بإخلاص ودون رية (إنظر إعلاه).

هل الأمر يتعلق بشخص غالباً ما يكون في نزاع مع مرؤوسيه لأنه متسلط جداً؟ في هذه الحالة، يرسلنا النص إلى الرمز حيث يستبدل الخط الرابع بضله. لنستشر الـ/ي كينغ/، نجد في الفصل ٣٤، قوة العظمة، في الخط الرابع، النصيحة التالية:



الثبات يؤمن الحسنات!

تأنيب الضمير يتلاشى.

السياج يزول ولا يعود هناك فرضي.

القوة تتركز على محور عربي كبير.

عندما يعمل المرء، يهدوء وثبات، على إزالة المقاومات، فإنه يبلغ ذلك في نهاية المطاف. فالعقبات تزول كما يزول تأنيب الضمير الناجم عن سوء استعمال السلطة. لا تتوطد السلطة بالمظاهر الخارجية، وإنما تتوطد بأهمية المهام التي تضطلع بها، وذلك مثل العربة التي تبرهن على صلابة محورها بأهمية الحمولات التي تنقلها، تفرض السلطة نفسها خاصة إن توطدت بصورة بعيدة عن مظاهر الأبهة.

وفي الصين الحديثة، يتم اللجوء، في غالب الأحيان، إلى طرق أخرى لإستجواب

المصير مثل رمي الترد والقطع المعدنية أو العصي. ويرى /يونغ/ أن النتيجة مماثلة وذلك بفضل مبدأها القائم على تزامنية الرمز والمضمون النفساني ويستنتج بهذا الصدد: وفي كل مرة نجحت، بواسطة هذا الاستبطان في إظهار الفينومولوجية النفسية للـ/ي كينغ/، كنت أعتبر أنني قد بلغت هدفي. لا أعتقد أنني أستطيع الإجابة على الأسئلة والإنشادات التي لأعصى التي يثيرها هذا الكتاب الرائع. إذ لا يقدم الـ/ي كينغ/ نفسه لنا مع ترسانة من البراهين والتتائج الملموسة.. إنه لا يزعم العصمة ويظل بلوغه صعباً. فهو ينتظر أن نكتشفه. مثل ظاهرة طبيعية، إنه لا يعد أحد بالقوة ولكنه يعرض نفسه لأولئك الذين يرغبون أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم وبلوغ الحكمة، إن كانت الحكمة موجودة. فبالنسبة للبعض، إن الروح التي تحرك الـ/ي كينغ/ هي روح شفاقة تماماً وبالنسبة للآخرين، إنه غامض تماماً. ولكن ما من أحد ملزم باستشارة الـ/ي كينغ/. ولا يؤمن بحقيقته إلا أولئك الذين يرغبون ذلك، ولكن بما أنه قادر على فعل الخير لهؤلاء، فليقلعه.

الفصل الثالث

الـ/يـ/

الملاءمة أو الطبيعة الجوهرية
الذهب الصافي لا يخشى البوتقة

الطبيعة والروح:

أينما تطورت الفلسفة، نراها تنتقل تدريجياً من النظريات للطبيعة إلى المقولات الذهنية. وفي اليونان، أدخل الفيلسوفان «الفيزيائيان» هيراقليطس/ و/انكساغوراس/ التصورات المثالية لـ/لوغوس/ «الكلمة»، ومنها الإدراك/ والـ/نوس/ «القدرة على التفكير ومنها العقل» ولكن تبقى هذه التطورات، بالنسبة لهم، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظواهر الطبيعية. ولقد لزم انتظار أفلاطون ونظريته في التصورات الذهنية حتى نرى ظهور المفاهيم الروحانية الصرفة للكون.

وفي الصين، يشكل الـ/لي/ إحدى التصورات الأكثر أهمية لهذا الانتقال بين الرؤية الطبيعية والبناء الروحاني. ويترجم تارة «الطبيعة الجوهرية» وتارة «بالإنصاف». والـ/لي/ قريب من التصور الهندي لـ/دهارما/ (٥) الذي قورن/ بالنعمة/ المسيحية وكذلك/ بالشانغ/ (أصالة). قال بوذا: «الحجر لها دهارما لأن الحجر هي تماماً وأساساً حجر» بنفس المعنى كان/ كنفوشيوس/ يقول: «يجب أن يتفق سلوك الإنسان مع الموقع الذي يشغله» ويدعو ذلك (تبرير الأسماء). وبالنسبة له كل إنسان يجب أن يعيش وفقاً لوظيفته في المجتمع ويقترح هذه القاعدة العامة «ليكن الملك ملكاً، والرعية رعية، والأب أباً والابن ابناً».

هذه الملازمة في العلاقات تشكل تحديناً لـ/لي/. يد أن الترجمة ليست واضحة تمام الوضوح ويمكن أن تعني قاعدة. يقول/ كنفوشيوس/: «ليصرف الملك كملك» و«ليعامل الملك كملك».

لقد درسنا في الفصل الأول كلمتي /طاو/ و/مينغ/ اللتين يمكن أن تكونا كلمتين أو فملين. كان بإمكان /لاو - تسو/ القول: طاو/طاو/مينغ/مينغ/ وهنا ماكان يمكن أن يعفيه من التشديد على القول: «طاو كو طاو» كان الطاو الحقيقي. ولكن الـ/طاو/طاو/ كان يحتوي أصلاً على طابع/ شانغ/ (الأصالة). ويصريفه الفعل الحقيقي باللافعل، (٥) دهارما: كلمة سنسكريتية تعني القانون بكل أوجهه. وتشكل أحد المفاهيم الأساسية للحضارة الهندية.

يكون/لاو- تسو/ قد اختار النفي الصوفي الذي وحده يعبر عن الطابع والمختلف بصورة أساسية للكلمة الحقيقية وللإسم الحقيقي.

إن /كنفوشيوس/ لا يتحرك في عالم صوفي وإنما في عالم أخلاقي، لذا كانت كلمتان تكفيانه للتعبير عن الفكرة: «ليكن سلوكك متفقاً مع اسمك» وبإمكاننا ترجمة ذلك بـ «لا تجعل سوء سلوكك يلطخ سمعتك الحسنة».

إن النحو الخاص للغة الصينية يسمح للصيني بالتعبير عن هذه العلاقة بصورة مقتضية جداً. إذ يكفيهِ لذلك أن يضع الفعل بعد الاسم. يوجد مثل صيني يقابل حكمة /كنفوشيوس/ «عامل المسن كمن والشاب كشاب».

ونظراً لأن الصيني يستطيع عملياً استعمال جميع الأسماء على شكل أفعال، فلديه إمكانية التعبير، على كل حال، عن الطبيعة الجوهرية والملائمة الطبيعية. ونحن نستطيع القول، عند اللزوم، إن التزد يبرد والثلج يذبل، بل وحتى أننا نستطيع استخدام صيغة الأمر «أيها التزد، ابرد» أو «ياثلج، اذبل» إلا أننا لا نستطيع القول «إنسان، إنسان» دون ادخال وصلة «يا إنسان كن إنساناً» إذ أن اللغة الصينية تستغني عن هذه الوصلة، ونفهم الاسم الثاني بمعنى الفعل. وفي الصينية «إنسان» تعني «يا إنسان، افعل كل ما هو إنساني» ولكن (إنسان) يمكن أن يكون أيضاً مفعول به بمعنى «عامل الإنسان كإنسان، كان كنفوشيوس يطلق على هذه العلاقة التبادلية بـ/كيو/ ويرى فيها مفتاح الحياة الأخلاقية: وإن الد/ي/ (الملائمة أو الطبيعة الجوهرية) والد/ي/ (التهذيب أو أوقادب للمعاشره، والخيال «بر الوالدين» تشكل ثلاث تطبيقات ملموسة للد/كيو/.

اللغة والثقافة:

نرى هنا الأهمية التي تأخذها الصبغ اللغوية في بناء القيم الثقافية. فاللغة هي التعبير عن نوع الحياة ولكنها تؤثر عليها بالمقابل، لقد أشار /غاردينيه/، على سبيل المثال، إلى تأثير اللغة المصرية القديمة بأشكالها وكتابتها المنمنمة للغاية على حضارة بلاد النيل. لقد وصف /ماكس مولير/ اللغة بـ (فلسفة مستحجرة). أما (برامبوليني/ فقد حاول، ربما بطريقة تبسيطية، جعل العلاقات بين اللغة، والبلد، والثقافة علاقات ملموسة: «الكلمات من مقطع واحد في الأشعار الإسكندنافية وعرة والشواطيء الصخرية. والسنسكريتية تبدو لي لغة محكمة.. وإن كان علي أن أصف الإغريقية الكلاسيكية، لقلت إن المرء يشعر فيها بوجود البحر والمدينة. في حين أن الحجر والمعابد تهيمن على

اللاتينية، والإسبانية هي توهج الشمس وكذلك البرتغالية ولكن يغشها غروب الشمس الرطب. أما اللغات السلافية فتشيعني هز في الريح في الغابة. وفي العبرية اسمغ النحيب، وفي العربية زمجرة متوعدة ولكنها تنفرد وتبسط أسرارها بالهتاسامات سمحة. أما اللغة الأندلسية فتتموج ولكن على شكل موجات تارة قصيرة وتارة عريضة. أما اللغة الصينية، فتبقى بالنسبة لغة، حصراً، مرثية...).

لقد حاول /روزانويغ/ أن يبرهن أن أهمية الفعل بالعبرية (جميع أسماء الموصوف مشتقة من الفعل) قد طور البعد التاريخي للفكر اليهودي. وبالمقابل، الفعل في اللغة الصينية لا يصرف أبداً وهو دائماً اسم موصوف. لذا فاللغة الصينية تميل إلى السكونية وسنعود إلى ذلك فيما بعد.

لقد أشار /هوفانداك/ إلى أن/ تبرير الأسماء/ لكتفوشيوس ينطوي على حضارة سكونية. وكتب بهذا الصدد وفي المجتمع السكوني، تثبت الطبيعة بحد ذاتها قيمة هذه المبادئ بصورة نهائية. وطلما ظل الناس يكيفون سلوكهم الخارجي مع هذه المبادئ، يكون الوضع مايجب أن يكون عليه. عندئذ كل إسم يطابق حقيقته ويتولد نظام العلاقات بين الرئيس والرؤوس وتكون الحكومة متوازنة.

الفكر الدوري:

تعتبر حقيقة بسيطة للغاية ظاهرياً عن سكونية الحضارات الشرقية. إننا نريد التحدث عن الطابع الدوري للفكر الذي يميز فلسفتها بالنسبة للمنطقية الاغريقية والدينامية المسيحية وكنائهما خطيتان. هاهي، على سبيل المثال، قصة /إليان كنغ/، باحث صيني من القرن السادس عشر.

إسم القط:

كان صاحب مقام رفيع في البلاد يدعى /كي/ يمتلك قطعاً رائعاً وكان فخوراً به أشد الفخر فسماه النمر. وذات يوم، تحدث أصدقائه، كان قد دعاهم لمنزله، عن هذا القط صاح أحدهم:

- النمر قوي، هذا شيء مؤكد، ولكن التين أقوى منه فلماذا لم نُسَمِّ قطك تيناً؟

تدخل صديق آخر:

- أقر بأن التين هو أقوى من النمر، ولكن عليه يرتفع في الأجواء لبلوغ الغيوم. يبدو

لي إذن، من الواضح أن الغيوم أقوى من التين لماذا لا تسمى قطك غيمة؟
تناول الكلام صديق ثالث:

- الغيوم قادرة على تغطية السماء ولكنها تستسلم للريح القادر على تشتيتها بلحظة واحدة ولو كنت مكانك لسميت قطي ريحاً.

- ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الريح ضد جدار من الأحجار؟
سأل مدعو رابع ومن الأفضل أن تسمي القط جداراً.

صاح خامس:

- إن كان الجدار قادراً على مقاومة الريح، فالفران قادرة على حفر الثقوب بالجدار.
هذا هو الاسم الذي يناسب قطك، يا/كي/ سميه فأراً.

- كان رجل عجوز من قرية /تشونغ لي/ يصغي بصمت لهله المحادثة. سألهم
بسخريّة:

- ولكن من يأكل الفأر؟

إن أخلاق التاريخ تفرض نفسها بنفسها: يجب تسمية الإنسان بالإنسان والقط
بالقط. إن الشكل الدوري يرهن على هشاشة ونسيية كل قدرة.

إن رمز كسار الأحجار الياباني الذي عرفته أوروبا عبر الروائي الهولندي /مولناتولي/
من خلال روايته /ماكس هافلار/ تصب في نفس المعنى. وإنا نقلها هنا حتى نتيج
للقارىء المقارنة.

كان رجل يستخرج حجارة من صخرة. كان عمله شاقاً مرهقاً وجهده مضيئاً
وراتبه ضئيلاً فصاح: لو كنت ثرياً لاستطعت الإستراحة على سرير من الخيزران تحت
ستائر الحريرا

ظهر ملاك من السماء، وقال له: ليكن كما ترغب.

أصبح ثرياً، استطاع التمدد على سرير من الخيزران تحت ستائر حريرية حمراء.
مر أمامه ملك البلاد يرافقه موكب من الفرسان يتقدم عربته، وكذلك فرسان
يتبعون عربته. وكانوا يحمون رأسه تحت مظلة كبيرة مذهبة.

وعندما رأي الثري الملك، رثى لحاله لأن رأسه لاثميه مظلة كبيرة ذهبية ولم يكن
سعيداً/ تحسر قائلاً:

وأريد أن أكون ملكاً.

ظهر ملاك من السماء وقال له: ليكن كما ترغب.

وأصبح ملكاً، موكب من الفرسان أمام عربته وفرسان آخرون يمتطون الجياد خلفها. وكانوا يحملون رأس الملك تحت مظلة مذهبة. وكانت الشمس تذف إشعاعاتها المحرقة تحرق الأرض بحيث أصبح العشب يابساً تماماً. اشتكى الملك من أن الشمس تحرق وجهه. تحسر صائحاً: أريد أن أكون شمساً!

ظهر ملاك من السماء وقال له: ليكن كما ترغب.

أصبح شمساً. كانت تذف إشعاعاتها نحو الأعلى والأسفل وإلى اليمين واليسار في كافة الاتجاهات.

وحرق كل العشب النابت على الأرض ووجوه الملوك الذين يحكمون على الأرض.

وتوضعت سحابة بين الأرض والشمس. وكانت الإشعاعات تصطبغ بها عبثاً. غضبت الشمس من رؤية قوتها تقاوم على هذا النحو واشتكت من أن السحابة كانت أكثر إقذاراً منها.

وأرادت أن تكون سحابة التي كانت على هذا القدر من القوة.

ظهر ملاك من السماء وقال: ليكن كما ترغبين!

أصبحت سحابة وتوضعت بين الشمس والأرض واعترضت الإشعاعات بحيث إنخضر العشب من جليد وأمطرت السحابة على الأرض بقطرات ضخمة جعلت الأنهر تفيض فهربت الماشية. وأتلفت الحقول بفعل السيول. اصطلمت بالصخرة التي لم تستسلم أبداً.

غضبت السحابة لأن الصخرة لم تشأ الاستسلام. ولأن قوة أمواجها ظلت عديدة الجلوى. لم تكن سعيدة.

صرخت: لقد منحت هذه الصخرة قوة أقوى من قوتي أريد أن أكون صخرة!

ظهر ملاك من السماء وقال لها: ليكن كما ترغبين.

أصبحت صخرة لا تستسلم لا أمام نار السماء ولا أمام هجمات المطر.

فإذا برجل مسلح بمول ومبرد حاد ومطرقة ثقيلة؛ يصل. اقتلع كتلاً من الصخرة.

قالت الصخرة: ماهذا؟ هذا الرجل إذن أقوى مني. يقطع الأحجار من صدري. لم تكن الصخرة سعيدة.

وصرخت: أنا أضعف منه. إريد أن أكون إنساناً!

ظهر ملاك من السماء وقال لها: ليكن كما ترغين!

أصبحت نحات أحجار. كان يستخرج الأحجار من الصخرة، وكان عمله شاقاً، وجهده مضيئاً، وراتبه ضئيلاً وكان سعيداً.

تلجأ اليهودية إلى طريقة مماثلة لتثبيت القدرة على كل شيء للرب غير المرئي. وأثناء عيد الفصح ينشد اليهود أغنية الحمل المسكين الذي التهمه القبط الذي عضه كلب وتستمر الأغنية على هذا النحو وهذه النهاية:

وجاء القديس، مبورك به،

الذي قتل ملك الموت

الذي كان قد قتل الثور

الذي كان قد شرب الماء

التي كانت قد أطفأت النار

التي كانت قد حرق العصا

التي كانت قد ضربت الكلب

الذي كان قد عض القبط

الذي كان قد أكل الحمل

الذي كان أبي قد اشتراه لي بـ/نوزين/.

أيها الحمل! أيها الحمل!

والقاطع التالية من القرآن الكريم أكثر وضوحاً. فإبراهيم عليه السلام تجنب العبادة الوثنية للكواكب، ومن آية إلى آية تتوصل إلى العلي القدير /الله/:

السورة السادسة: سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴿٢﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده

ثم أنتم تمترون ٢٣، وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسيون ٢٤، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين..... ٢٥، وإذ قال إبراهيم لآبيه أزرأ اتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ٢٦، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ٢٧، فلما جن عليه الليل رأى كواكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ٢٨، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لن لم يهديني ربي لأكون من القوم الضالين ٢٩، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ٣٠، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.

الزماني والأبدي:

ينبغي استنتاج مما سبق أن الحضارات الشرقية لاتفكر إلا في الصيغة الدورية. وإذا مدارسنا بعناية الرواية التي يرويها /تشوانغ - تسو/ عن الاجتماع بين /كنفوشيوس/ و /لاو - تسو/ نلاحظ أن المؤلف يضع الأبدية خارج الزمن ونقرأ: بداية ونهاية تتأبدان بدون بداية ونهاية، ولكن «الإنحدار والنمو، الإمتلاء والفراغ، الظلمة والنور، وتناوب الشمس والقمر تحدث يومياً».

كان /تشوانغ تسو/ يعلم أن الظواهر هي دورية ولكن الطاو أبدي ولا يتبدل. وليس صحيحاً القول، كما يقال غالباً، أن الحياة والموت يبتقان عن بعضهما البعض. من يولد يأتي من الطاو ومن يموت يعود للطاو ومن ينبعث ينبعث من الطاو.. إلخ. يسمى الهنود هذه العملية الدورية بكلمة /كالبا/. والظواهر بكلمة /سامسارا/. وبالنسبة ليهودا، يجب على الإنسان تحديداً الإفلات من هذه الحركة الدورية بحيث يظل في الطاو /رفانا/.

ليس في الحركة الدورية أي شيء مثالي أو مرغوب به والحكيم يقبلها ببساطة بما أنها مفروضة عليه.

إن الفرق الأساسي بين الفكر الشرقي والفكر الغربي يكمن في مفهوم العلاقة بين الزماني والأبدية وجميع للمذاهب الشرقية /لاو - تسو/ و/ياجنا فاكيا، بوذا، بادمازامبهافا/ تضع الزماني خارج الأبدي، في حين أنه، في الغرب، يترك الزماني في الأبدي. لقد نجح عن ذلك الكثير من الإلتباسات. فعندما يتكلم مفكر غربي متأثراً

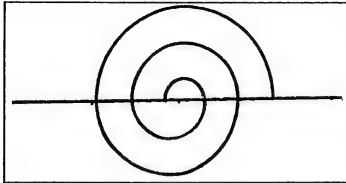
بالشرق عن العودة الأبدية للظواهر، فإنه لا ينقل إلا ظاهرياً فكر مفكر شرقي مثل فكر / لاو - تسو/ الذي ينظر إلى الدورة المتواصلة للظواهر على أنها تنبثق من الأبدية وتعود إليه. ولكن هذه الدورة يمكن أن تنتهي وهنا ينطوي على أنها ليست أبدية. ومذهب بوذا يركز على هذا المبدأ. والخلاص، «السعادة الأبدية»، هو الإفلات من سلسلة التقمصات.

هل ينبغي القول أن جميع الشرقيين ليسوا بالضرورة من أنصار هذا المبدأ؟ وكذلك الحال، في الغرب، لا يستلهم الجميع من الفكر التاريخي. ويرى كبار المفكرين الشرقيين في دورة الظواهر على أنها تجل للأبدي. وبهذا المعنى الأبدي هو البداية والنهاية لكل حركة دورية.

وفي بكين، وبالقرب من بوابة /ها - تا/ حيث تبدأ المدينة الترتية، ينتصب جناح الانسجام الأسمى. وبإمكان المرء قراءة هذا النص القديم للغاية: «الأشياء لها بداية ونهاية. ومعركة ماير أولاً وماير أخيراً هي إقتراب من الطاو».

ولفهم الفكرة بصورة أفضل، نستطيع رسمها تخطيطياً، معتبرين أن الطاو هو محور الحلزون الذي يرمز لتطور الظواهر. يقطع المنحني دورياً المحور الذي يظل موجوداً فيه باستمرار.

والحكيم يذل قصارى جهده للإفلات من سلسلة الولادات والميتات، ويسعى جاهداً أن يكون، باطنياً، إنعكاساً للطاو دون أن يترك نفسه تتأثر بمشهد الولادات والميتات. من يحمل في ذاته الطاو هو غريب عن الحياة والموت «النمر لا يعرف أين يغرز مخالبه في نفسه وكذلك الثور لا يعرف أين يغرز قرنيه».



لقد عالج /لاو - تسو/ كل هذا في /طاو تي كينغ/ يساطته المعتادة وأشرك فيه العدد /١٣/، رمز سوء الطالع في الصين كما في الغرب.

الدخول في الحياة يعني الإستسلام للموت.

ثلاثة عشر صديقاً يصطحبوننا في الحياة.

ثلاثة عشر صديقاً يلحقوننا في الموت.

ثلاثة عشر عدواً يدفعوننا من الحياة إلى الموت.

لماذا؟ لتعلقهم جميعاً بالحياة.

من تجرد عن الحياة معصوم عن الجروح

بالنمر والثور الوحشي!

معصوم عن الجروح بالأسلحة؟

فالثور الوحشي لا يجد أين يفرز قرنيه.

والنمر لا يجد أين يفرز مخالبه.

والعدو لا يجد أين يطعن سيفه.

لماذا؟

لأنه موجود خارج الموت.

لقد عبر بوذا عن ذلك بطريقة مماثلة. فقد كان يثير، دون أن يبدى أي خوف، غابة مليئة بالثعابين والنمور. وكان يرد على مريديه القلقين: «من يرى رسولاً يمر أمام بيته. وهو يعدو بسرعة كبيرة يستطيع القول: هذه الرسالة ليست لي. وكذلك الوليد، إنه يعرف أن مخالب النمر وأسنان الثعبان ليست مخصصة له.

التسليم:

لا تبلغ طبعاً مثل هذا الفهم إلا إذا عرفنا بعمق معنى الألم. والإسطورة الدينية تروي أن بوذا، واجه في شبابه بقسوة منظر الألم والمرض والموت. وتوضح فكرة هذا المذهب الذي تولد من هذه المواجهة في رمز حبة الخردل الأسود:

كان الطفل ميتاً وجامداً.

وكان كريشنا غوتاما (بوذا) يتأمله.

ولكن ما من حركة تحرك الجسد الصغير.
عندما كانت أمه تناديه باسمه وتقبله.
ضمت الطفل إلى صدرها
وطلبت العون من صديق لآخر.
كان الجميع يشاركونها ألمها
ولكن ما من أحد منهم كان يمتلك عشياً
قادراً على شفاء الطفل.

وحده، راهب متسول
وجه الأم إلى صاحب الرؤيا،
وقال بوذا: يكفي أن تجلبي لي
حبة الخردل، مزروعة في منزل
من لا يبيكي قريباً أو عبداً.
شرعت الأم تبحث عن الدواء
ولكن في كل مكان يوجد ميت.
وعلى الأحياء صغير،
وعلى الأموات كبير.
عادت نحو غوتاما.

هل حصلت على حبة الخردل؟
ردت ببساطة «هذه الحبة، ياسيدي،
هي شيء ما غير موجود»
علائق، علمها مذهبه عن إنتقالية الأشياء
تسلّمت وأصبحت مريدته.

لنقارن هذا الرمز مع رمز الإنجيل حيث توجد مسألة حبة الخردل الأسود، والفوارق
تظهر بوضوح.

يقول المسيح: يشبه ملكوت السموات حبة خدل أخذها إنسان وزرعها في حقله،

وهي أصغر جميع الزور. ولكن متى تمت فهي أكبر البقول. وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتاوى في أغصانها «إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر» ولكن الفكرة مشروحة بصورة أوضح في إنجيل متى أيضاً الإصحاح السابع عشر:

فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكتنم تقولون لهذا الجبل إنتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم.

إن جذور الخردل تخرق الصخر وتظهر إذن كرمز كامل لصغر غير محدود الذي يفرض قانونه على كبر غير محدود للإيمان الذي يرفع الجبال. فالمسيح يؤكد أن الإيمان يحقق المستحيل وهو نفسه قد أحيا ابنة رئيس. والنقطة الأساسية في الفكر المسيحي هي أن الأبدي يتجلى في التاريخ. بينما لا يدرك بوذا الأبدي إلا في منظور غير تاريخي.

التاريخ والحكمة:

ما الفائدة التي يمكن أن يجنيها الغريون الذين تتمحور ثقافتهم على التاريخ من هذه الرؤية غير التاريخية؟

عندما يقارن المرء بين المفهومين، يلاحظ أنهما ليسا متنافيين فالتاريخية والحكمة غير التاريخية هما متكاملتان، والشعور بالأبدية في التاريخ لا يحول دون الشعور بالأبدية خارج التاريخ. ومن وجهة النظر الفلسفية الإنسانية الغربية، فإن مفاهيم /لاو - تسو/ وبوذا ليست غير صحيحة وإنما غير كاملة، أي غير منجزة. وتدل أحداث العقود الأخيرة، أن التاريخية استطاعت الدخول بعنف في حضارة مشهورة بأنها غير تاريخية التي اضطلمت بها «أن يكون قد تم ذلك باسم ماركس أو لينين، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً» وهذا لا يمنع أن لدى الغرب شيئاً ما يتعلمه من الحكماء الصينيين القدماء. من أولئك الذين كانوا يتأملون الأبدية في قطرة ماء، إن كان الشرق يستطيع أن يتعلم أن الأبدية تتجلى في التاريخ، فإنه يستطيع أن يعلم الغرب أن الأبدية موجودة في متناول اليد: في الطبيعة، وقرأنا في كتاب الملوك «الإصحاح ١٩» رواية هروب إيليا إلى جبل حوريب حيث تجلى الرب له:

وأمام الرب، واذ بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف.

فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه ووقف في باب المغارة وإذا بصوت إليه يقول
مالك هيا يا إيليا؟

هذا الصمت الصوفي: الوجه ملفوف برداء، لقد عاشه /لاو- تسو/ و/بوذا/ بعمق
أكبر من معظم المفكرين الغربيين. وإنه لمن المستحسن أخذ شهادتهم بعين الاعتبار
وكذلك الدعوة إلى الطبيعة الجوهرية، التي لا تقل أهمية، التي أطلقها /كتفوشيوس/
ومريدوه الذين تطور عندهم حس تاريخي ما، كما يدل على ذلك هذه الكلمات لـ/
شوان تسو/:

تمجدون الطبيعة وتأملونها:

لماذا لا تروضونها وتنظمونها؟

تبعون الطبيعة وتتشدون مديحها:

لماذا لا تتحكمون بمجرأها وتستخلمونها؟

لنا أقول: إهمال جهد الإنسان وتأمل الطبيعة

موجهل لحقيقة العالم.

الدي/ في الأمثال:

تحفظ الحكمة الصينية الشعبية بعدد كبير من الأمثال:

الفلاح يطلب المطر، والمسافر يطلب الطقس الجميل والآلهة تتردد.

لا يوجد في الإبرة، بصورة عامة، سوى خرم واحد.

لكل قشة عشب، قطرة ندى.

ربع البرتقالة له نفس طعم البرتقالة الكاملة.

النقود تشتري كل شيء، إلا النقاء وراحة البال.

بعض هذه الأمثال يعبر عن تقلبات الحياة وتأكيد الموت. تطلق عبارة /الجمال
الأسود/ على الموت في الكثير من مناطق آسيا.

الجمال الأسود يجتو أمام كل باب.

وبعض الأمثال تستند إلى الدي/.

إذا أردت أن تصطاد السمك، عد إلى بيتك واصنع شبكة.

وهذا تذكير بالعلاقة الضرورية بين الهدف والوسائل.
ونحن نقول ولا يصاد الذباب بالخل، وضمن نفس هذا السياق من
الأفكار، يقول /لاو - تسو/:

«يجب حكم للملكة مثلما يقلى السمك الصغير».

يجب تحريك السمك الصغير بلطف في القلاة وألا تحول إلى نقيع وكذلك الحال
يجب أن تسهر الدول على حماية حقوق المواطن.

ومن جانبه. يقول كنتوشوس:

إن كنت تعرف الأمر،
اعمل كرجل يعرفه.
إن كنت لاتعرف الأمر،
اعترف بأنك لاتعرفه،
تلك هي المعرفة.

وهذا مايدكرنا بقول سقراط: «كل ما أعرفه، هو أنني لا أعرف
شيء».

وهذه حكمة أخرى لـ/كنتوشوس/:

«كل شيء يمتلك جماله ولكن لا يستطيع الجميع رؤيته».

تعريف كنتوشوس:

لقد اختصر كنتوشوس مفهوم الدلي/ في ثلاث جمل التي ترد بين الحكم الصينية
الأكثر شهرة. ولقد أدخلها حفيده /تسو - سو/ في كتاب/تشونغ يونغ/ أو مذهب
البيئة الدائمة وإننا نقلها هنا:

أ - ترتيب من السماء يسمى الطبيعة.

ب - اتباع الطبيعة يسمى البساطة.

ت - تهذيب البساطة يسمى الثقافة.

هذه الجمل الثلاث تعطي مفتاح كل الفلسفة الصينية.

كانت مدرسة /لاو - تسو/ تبحث عن الإتحاد الصوفي مع الطبيعة (الفعل

باللافعل). أما الاتجاهات الأخرى فتحاول عبر الثقافة (الفن، الأخلاق، الدين، العلوم، السياسة) إعادة تكوين وإعادة خلق هذا الاتحاد لنا غالباً ما يترجم الطاوب -/الصوفي/ والـ/قي ياو/ بالدين، العبادة، الأخلاق. (لاو - تسو) هو معلم الطاو، وكتفوشيوس هو معلم الـ/قي ياو/ وكلاهما بذلا قصارى جهودهما للعيش مثلما عاش حكماء الصين القدماء في الـ/ي/.

الفصل الرابع

خا

أو بر الوالدين
عندما تشرب ماء، تذكر النبع

تعاليم كنفوشيوس:

إن الميزة الكبرى لكنفوشيوس تكمن في كونه نقل الديني/ من الصعيد الفلسفي إلى صعيد الحياة اليومية ليجعل منه قيمة عملية ومن هنا جاء المأخذ، الذي يؤخذ عليه أحياناً، بأنه قد اقترب من الابتذال.

إن التقاليد، القابلة للنقاش والمعرض عليها، تجعله يعيش بين ٥٥٢ - ٤٧٩ قبل الميلاد. وربما يكون قد مات قبل عشرة أعوام من مولد سقراط، وقبل وفاته، ربما قال لحفيده ومريده /تسو - سو/:

«الجيل الكبير ينهار، والعارضة الرئيسية تنحطم، والحكيم يذبل» إلا أنه كان بإمكانه أن يكون راضياً عن حياته. لقد انجز عملاً مفيداً للغاية ذلك بتثيذه العقلية السحرية التي كانت تفرق بها الثقافة الصينية لصالح عقلانية «حديثة». وغني عن القول أن مثل هذا التطور يتطلب عدة قرون حتى ينجز تماماً. ولأشك لقد عرف كنفوشيوس خلال حياته، الكثير من حالات زوال الوهم. يؤكدون أنه مات مقتنعاً تمام الاقتناع بفشلته التام، ولكن تلك كانت حالة معظم المعلمين الروحانيين الكبار /لاو - تسو/ اضطر إلى مغادرة بلده: بوذا صرخ «النظام المؤسس لألف عام لايدوم إلا خمسمائة عام، سقراط شرب السم. المسيح مات على الصليب، موسى لم ير أبداً أرض الميعاد، أفلاطون تأوه: «لم أستطع أبداً التعبير عن الجوهر». توماس الأيقوني أعلن: «لقد رأيت أشياء تجعل من كتي ترهات لاقيمة لها».

لقد وقرتهم جميعاً الأجيال اللاحقة. وكذلك الحال بالنسبة للمعلم /قونغ/ الذي نسميه /كنفوشيوس/ وكما كتب عنه يوريل: ما فتئت روحه، التي ظلت خالدة، تهتر فوق الصين كلها. ولا يمكن فهم روح الصين إن كانت لا تحتوي على روح كنفوشيوس».

قال كنفوشيوس ذات يوم لمريده /قو - تسو/: «إن مذهبي هو وحدة تربط بين جميع الأشياء» هذا المذهب هو، بالفعل بمجمل لكافة القيم الدينية والفلسفية والأدبية والعلمية والسياسية للصين».

وما من شيء، في الحياة اليومية الصينية، لم يتأثر بطريقة أو أخرى بالكنفوشيوسية. وما من عمل هام، وما من سلوك عائلي، حب وصداقة، وما من عمل أدبي أو فلسفي، وما من مراسم، وما من مظهر من مظاهر آداب للعاشر، وما من عمل اجتماعي قد نجا من تأثير كنفوشيوس.

لقد كتب الكاتب الصيني/ تشينغ - تشانغ لو/ عام ١٩٠٩ في صحيفة إنكليزية: خلال الألفي وخمسمائة سنة المنصرمة، لقد عشنا في الصين على رأسمال جمعه أسلافنا، ولقد حفظت لنا بصيرة وحكمة فيلسوفنا العظيم كنفوشيوس ذكره وخبرته الثمينة، وبدونه، لكان الشرق الأقصى/ الصين - كوريا - سنام، وحتى اليابان القوية للغاية اليوم، قد غرق في أعماق البربرية.

وقبل قرون عديدة من الميلاد، كان كنفوشيوس ينطق بهذه الأقوال الذهبية.

جميع الناس، بين البحار الأربعة، أخوة

لا تفرح للغير ما لا تحب أن يفعل الغير لك.

كانت هاتان الحكمتان كافيتين لتبرير الكتابة المنقوشة على مدخل معبد كنفوشيوس في بكين: «قدوة للمعلمين لعشرة آلاف قرن».

والإمبراطور المستير العظيم /كانغ هي/ هو الذي خط بريشته هذه الجملة على مدخل المعبد.

لقد بُعث روح كنفوشيوس في ريشة كل أديب صيني، فهو الذي صنع الجمال الرائع للأدب الصيني الكلاسيكي.

ولد /قونغ فو تسو/ في تسو، في مملكة ال/لو/. «مقاطعة تشانغ كونغ الحالية». كانت دولة ال/لو/ مركز الحضارة الصينية في ذلك الزمن. وكانت عسكرياً أضعف الدول التي كانت تشكل الصين ولكنها كانت تتفوق على الجميع في الفن والأدب والفلسفة وعلم الأخلاق. ابن موظف كبير - شيء ما مثل رئيس بلدية مدينة كبيرة غربية اليوم، كان الفيلسوف يسمى باسم عائلة /قونغ/ وباسمه الشخصية /قيو/ وبقلب الرجولة/ تشونغ في/ «لأن الصينيين يتلقون اسماً عند البلوغ». وفيما بعد، أطلق عليه اسم لقب المعلم وفي الصينية فوتسو. قونغ فو تسو: قونغ المعلم.

لقد تألم تألماً عميقاً للفوضى وإنحطاط الأخلاق في الصين أيام زمانه. لقد كافح طوال حياته للإصلاح عن طريق الإقناع والقدوة. وعندما بلغ الثانية والخمسين من

عمره وبعد محن كثيرة وخيبات أمل عديدة، أصبح كبير أمناء مدينة /تشون - تو/. وتقول الأسطورة إن إدارته وعدالته كانتا تمان عن نزاهة كبيرة بحيث أن أمراء الجوار اتخذوه قدوة. وفي الثالثة والخمسين من عمره أصبح وزيراً للخارجية وفيما بعد وزيراً للعدل. وفي السادسة والخمسين أصبح رئيس حكومة. لقد امتد نفوذه وتبين أن اصلاحاته كانت مثمرة..

لقد قلقت الدول المجاورة، خشي ملك دولة /تسي/ المجاورة أن تتفوق دولة /لو/ في ظل إدارة /كنفوشيوس/ على جميع الدول المجاورة. وكشرفي خدم، أرسل الملك للدوق /تينغ/ ثمانين موسيقية وراقصة ومئة وعشرين حصاناً غالية الثمن، وخلال الأيام الثلاثة الأولى رفض الدوق استقبالهن وأهمل الشؤون العامة.. وأخيراً انهزمت الحكمة والجمال، ولم تعد عيون وأذان الدوق والبلابط متجهة إلا للموسيقىات. لقد زعزع هذا المثل الشعب الذي تعلم من المعلم /قونغ/ أن يتبع دروب التقشف والفضيلة.

لم يعد أمام /كنفوشيوس/ سوى التخلي عن مهامه ومغادرة البلاد حيث الحواس الغريزية انتصرت على الحكمة.

رباع وخرف:

مثل /دانتاه/، قضى كنفوشيوس بقية حياته يتوه من بلد إلى آخر عبر أرجاء الصين عارضاً خدماته كمصلح. أحياناً، كان يُستقبل لبعض الوقت ثم يطرد إن لم يُزج في السجن. وفي كل مكان كان يمر به، كان كنفوشيوس يعلم مذهبه ويجمع المريدين. ولقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف مريد. وبعد أربعة عشر عاماً من المنفى. استدعى /اللو/ ولكن لم يعرض عليه أية وظيفة عامة. عندئذ نظم مدرسة ليعلم فيها مذهبه للعديد من المعلمين الذين جذبهم شهرته. كان عمره ستة وستين عاماً.

لأنعرف بالضبط ماهي الكتب، من بين الكتب التي تنسبها التقاليد إليه، التي كتبها بنفسه. لقد جمع كتب الـ/كينغ/ الخمسة التي سطرها عن كتب في الفصل التالي. وربما يكون الكتاب الخامس /حوليات رباع وخرف دولة /لو/ من تأليفه ويروي فيه تاريخ الصين من عام ٧٢٢ إلى عام ٤٨١ قبل الميلاد. ولكتابة هذا المؤلف، أرسل كنفوشيوس أربعة عشر من مريده عبر الصين بمهمة جمع ودراسة الكتب المقدسة لمئة وعشرين شعباً.

يقول /تشين هوان تشانغ/: «إن الأقوال التاريخية لهذا الكتاب ليست إلا رموزاً تهدف إلى توضيح مبادئ كنفوشيوس». أما كنفوشيوس نفسه. فكان يؤكد: كان بإمكانني عرض أفكارني بشكل نظري بحت. ولكن بدا لي أنه من الأفضل تقديمها عبر الأفعال الإنسانية فأصبحت بذلك أكثر حقيقة وأكثر وضوحاً وجلاءً. ينتقد كنفوشيوس في هذا الكتاب الأباطرة ويحط من كبراء الملوك ويهاجم كبار الموظفين، ويصف المملكة المثالية التي تحكمها العدالة، يقول كنفوشيوس إن كتاب حوليات الرباع والخرف سيُعرف بي، وحوليات الرباع والخرف سيجعلني أذان.

المساواة الكبرى:

إن كتاب حوليات الرباع والخرف مثير للاهتمام أيضاً لكونه يكشف الرؤية المستقبلية لكنفوشيوس. فإتنا نتعلم منه، على سبيل المثال، أن كنفوشيوس لا يعتبر مراسم وطقوس الد/لي/ إلا كأمر ذات أهمية مؤقتة، ويميز ثلاث مراحل في التطور الإنساني. في المرحلة الأولى، مرحلة القوضى، تكون الحضارة قد خرجت بالكاد من القوضى. يميز المرء فيها تمييزاً جندرياً بين بلده والبلاد الأجنبية وهذا لا بد أن يولد كره الأجنبي وتصبح الدول الكبرى مرهوبة الجانب وتحتقر الدول الصغرى. أما في المرحلة الثانية، مرحلة السلام التدريجي، لا يعود الناس يميزون تمييزاً جندرياً إلا بين البلدان المتحضرة والشعوب البربرية. وتتوسع حدود الحضارة وتتم الصداقة بين كافة الأمم وتتمتع الدول الصغرى بحقوق متساوية وترسل الممثلين عنها لدى الدول الكبرى.

ولكن في المرحلة الثالثة، مرحلة السلام العليا وتسمى مرحلة العدالة الكبرى، لا يعود ثمة وجود للتمييزات، إذ يكون البرابرة قد تحضروا وحصلوا على حقوق مساوية لحقوق الشعوب الأخرى.

ومع أن العالم يتكون من أمم متقاربة وأمم قريقتين بعضها البعض وأم صغيرة وكبيرة، فإنه يشكل وحدة وتبلغ البشرية تطورها النهائي. واليكم كيف يتصور كنفوشيوس المرحلة الثالثة تلك:

عندما يسود مبدأ العدالة الكبرى، لانمود الأرض تشكل إلى جمهورية واحدة فقط، يُستدعى الناس أصحاب الموهبة والفضيلة والمعرفة الذين يعملون من أجل السلام

الكزني وذلك بالتشاور فيما بينهم وبالتعاون مع بعضهم البعض. ويكف الناس عن رؤية الأقارب في أقبائهم. والأبناء في أبنائهم. يتم إعداد نظام عملي يؤمن الرفاهية للمسنين حتى مماتهم والعمل لجميع البالغين والتعليم المناسب للأطفال، ويتم تلبية حاجات الأيامي والأيمات (أرامل) والأيتام والمسنين الذين ليس لهم أبناء وكذلك حاجات المرضى والمعزة. تؤمن حقوق الفرد وتحترم كرامة المرأة. ينتج الناس الغلال والثروات ولكن ليس فقط للملئتهم ومنافعهم، ولأنهم يحتفرون العطالة، يعملون لخير الجميع.

حالياً، هذا المبدأ الكبير لم يطبق بعد في العالم فالمائلات تترث والإنسان لا يرى في أقبائه إلا أقباءه وحدهم، ويعامل أطفاله كما لو كانوا أطفاله له وحده. ويعتبر عمل كل فرد ورفاهية كل فرد شؤوناً شخصية.

وحى الرجال العظماء، مازالوا يتصورون حتى اليوم أنه من العدل أن يورثوا ممتلكاتهم لمائلاتهم. يريدون مدناً مغلقة جيداً، محمية ومعزولة بالأسوار والخنادق والأبراج.

تعتبر الطقوس والعدالة مثل الخيوط التي تربط بصورة صحيحة الملك بالرعية، والأب بالابن والأخ الأكبر بالأخ الأصغر والزوج بالزوجة. وإنطلاقاً من ذلك، ينظمون استهلاك الثروات ويوزعون الأراضي والبيوت ويتقنون الحارين والقادة ولايسعون بذلك إلا لمصالحهم الشخصية. ولذلك تتغلب النشاطات الأنانية وتنشب الحروب مسببة الدمار والحراب.

عقب /بول/ على هذا النص قائلاً: «يعرف جميع الصينيون الأهمية التي يوليها كنفوشيوس للعلاقات الاجتماعية القائمة (بين الملك والرعية، بين الأب والأبناء، بين الرجل والمرأة، بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، بين الصديق والصديق). إن هذه العلاقات تدخل في صلب علم اجتماعه. وعلم أخلاقه. ولكن لا يتجاهل طابعها المؤقت. وكان يراها ضرورية للتطور الإنساني في هذه المرحلة الثانية التي كان يعيش فيها ولا تزال تعيش فيها. ولكن في المرحلة الثالثة، يصبح العالم أجمع كياناً اجتماعياً واحداً يشكل فيه الفرد وحدة مستقلة ذاتياً وتبلغ القيم سواء كانت اجتماعية أم فردية أعلى مراحل ازدهارها. وبما أنه لا يعود هناك وجود للدول القومية، إذن، لا يعود هناك لا حروب ولا التزامات دفاعية، ولا يعود هناك حاجة للاستراتيجيين والحارين. والشعب ينتخب الناس أصحاب الفضيلة والموهبة والكفاءة، لأن الشعب أصبح

سيداً، والملاقة بين السيد والرعية لاتعود قائمة ولايعود الزوج والزوجة مرتبطين بالزواج. كما لايعود هناك أي مبرر لوجود علاقات بين الأب والابن، والأخ الأكبر والأخ الأصغر.

«والتمودج الوحيد الذي يبقى هو الصداقة، إذ لايعود هناك وجود للعائلة، إذن، لا وجود للميراث والملكية الخاصة، والنشاطات الأنانية، ولايعود هناك وجود للطبقات الاجتماعية. والطريقة الوحيدة للقسمة بين الناس التي تبقى صالحة هي الطريقة القائمة على السن؛ ولكن الشاب والمسن يكون لدهما مايلبي حاجاتهم وعندما يسود مبدأ العدالة الكبرى: جميع الناس متساوون. والفوارق المتعلقة بالثوابت الكبرى للأخلاق (حب، عدالة، طقوس، معرفة، نزاهة) تصبح غير ذي موضوع، فكل إنسان يحب الآخرين بدافع الضرورة العفوية، كما أن الطقوس الإصطناعية والعدالة لاتعود ضرورية».

الرجل المتفوق:

ولكن مؤلفات أتباع كنفوشيوس أكثر أهمية بالنسبة للحضارة الصينية من حوليات الرباع والخرف.

نجد في هذه الكتب تصريحات المعلم مقدمة على شكل حوارات، وتقدم هذه الأحاديث عادة «المختارات» كقطع مختارة وهنا أيضاً التشابه بين كنفوشيوس وسقراط مدعش: إذ أننا لاتعرف فكر سقراط إلا عبر حوارات أفلاطون، وزيونوفون.

وفي كتاب أحاديث، يعرض كنفوشيوس المثل الأعلى للرجل المتفوق (الأمير). علماً أنه لم يعط أبداً هذا اللقب لنفسه، لكي يبلغ الإنسان حالة التفوق يجب عليه مراعاة (الحياو) بر الوالدين.

احترام الأصول:

حتى في الفلسفة، يعتبر احترام الأصول فضيلة سامية لأنه يساعد على فهم أكبر للظواهر.

نلاحظ أن أرسطو يعرف الفلسفة على أنها تأمل للأسباب الأولى، ويشير /كارل بار/ إلى أن الوصية: «ستكرم أباك وأهلك، تصب في احترام أبوية الرب».

ويجب رؤية العبادة بالالفة التعقيد التي كان يمارسها القدماء الصينيون ضمن

منظور احترام الأصول. والمرسوم المقدس للإمبراطور /كانغ هي/ (١٦٦٢ - ١٧٢٥) يصف العائلة: «نهر له سواعد وروافده كثيرة ولكن حيث يجري نفس الماء مهما كان النبع بعيداً» والمثل السائر الشعبي يذكر المرة: «عندما تشرب الماء، تذكر النبع».

الشيخوخة:

إن احترام القدماء كان دائماً موجوداً في الصين، واليوم أيضاً، يعتبر ذلك أمراً بديهياً. فالسن يمنح عزة النفس والسلطة. فالرجل المسن يُسكت الشاب قائلًا: «اسكت، لقد اجتزت جسوراً أكثر مما عبرت أنت من الشوارع».

واليكم بأية تعابير يسخر /لين يوتانغ/ بالهوس الأمريكي بالظهور دائماً بمظهر الشاب.

إنه لتعسف لقوي حقيقي أن يصرح الرجل المسن، في أمريكا، الذي يشعر بالحياة والعافية أنه «شاب» أو أن يُجامل على «شبابه» في حين أنه، في الواقع وبساطة، بصحة جيدة أن يبلغ المرء الشيخوخة بصحة جيدة، وأن يكون «مسناً وسليماً» هذه هي السعادة القصوى. ولكن وصف هذه الحالة بـ «سليمة وشبابية» يعني التقليل من هذه السعادة ونسب عدم الكمال لما كان كاملاً. لا يوجد في العالم شيء أجمل من رجل بصحة جيدة وذكي وذو وجنتين ورديتين وشعر أشيب يتكلم برزانة عن الحياة كخير. إن الصينيين يعرفون ذلك جيداً ولقد قلعوا دائماً كصورة للسعادة الكبيرة الدنيوية الرجل «بوجنتين ورديتين وبشعر أشيب».

أتصور أن الكثير من الأمريكيين قد استطاعوا مشاهدة عروض صينية عن إله الشيخوخة: جبين عال، وجه وردي، لحية بيضاء، مبتسم! هذه الصورة المفعمة بالحياة تتم عن الرضى، إنه محاط بالاحترام، واثق من نفسه لأنه ما من أحد يشك بحكمته. إنه عطوف لأنه رأى الكثير من المعاناة الإنسانية. وعندما ينهي رجلاً على حيويته، يقول له: بقدر ماتشيخون، بقدر ماتصبحون أقوى، ولربما لقينا رجلاً مثل دافيد لويد جورج «بزنجيل عتيق» لأنه بصيرته تزداد مع مرور السنين.

يرأى أن أمريكا ينقصها الشيوخ الكبار بلحية بيضاء، أظن أنه يجب أن يوجد منهم، ولكنهم، دونما شك، قد تأمروا حتى يتواروا عن أنظاري. لم ألتق، إلا مرة

واحدة، في نيوجرسي رجلاً له لحية مهيبة، ربما كان ذلك بسبب خطأ في شفرة الأمان! ومهما يكن، فالأمر محزن وغبي بقدر ماهو محزن وغبي جث حراج التلال الصينية، من جانب الفلاحين المعتوهين، الذي يحرم الصين الشمالية من غاباتها الجميلة ويجعل التلال قرعاء وقبيحة مثل ذقون شيوخ أمريكا. لقد اختفى شيوخ أمريكا الكبار المحترمون. ولم يعد هناك العم سام ذا عُشنون (لحية صغيرة) أبيض: والعم سام هو أيضاً قد مرر شفرة الأمان عليه حتى تكون له هيئة الشاب المغرور ذي الذقن البارزة والنظرة الفولاذية خلف نظارات اليوم. إنه بديل مؤسف للصورة المهيبة الجليلة لأيام زمان.

قابلة التلقي:

ينظم الـ/خياو/ جميع العلاقات الإنسانية المبينة على الـ/بي/. والطبيعة الجوهرية، لقد وصف الفيلسوف /الوكيا/ الذي عاش حوالي /٢٠٠٠/ قبل الميلاد، في كتاب /سينيو/، حكومة الدولة المنظمة. وتبرز مرآته للسلوك رد فعله على الحروب سلاله /تشو أو/ المدمرة.

يحتوي الكتاب على إثني عشر فصلاً. يعالج الفصل المبدأ الأساسي للنظام العالمي. والفقرة التي نقلها أدناه تدل على أن الـ/خياو/ ينبثق من السحر القديم وفلسفة الطبيعة. وسنرى أن مبدأ /قابلية التلقي/ يشبه الـ/بي/:

من يريد أن يعرف السماء يرفع عينيه ويتأمل الكواكب. من يريد معرفة الأرض يخفض عينيه ويتأمل خطوط قوة الأرض. كل من يتحرك زحفاً مثل الديدان، كل من يعيش في الماء والحقول، وكل من ينبت الجذور والأوراق، كل ذلك يمتلك التوازن الداخلي والراحة الخاصة بطبيعته، لأن السماء والأرض يتأثران في بعضهما البعض بالتبادل وقواها تدعم بعضهما البعض وهما أيضاً كاملتان.

لذلك كان القديسون قديماً يرفعون أنظارهم نحو الكواكب ويخفضون أنظارهم لدراسة خطوط قوة الأرض. حيثئذ فقط بدأ الشعب يفهم، فهم أنه يوجد محبة بين الأب والابن وأن الواجب يربط الملك بالرعية وأنه يجب أن تكون العلاقة بين الرجل والامراة علاقات منسجمة وأنه يجب أن يكون هناك مراتب بين الشباب والشيخوخة. ووفقاً لمبدأ الأقدمية تتكون طبقة الموظفين.

بصورة عامة، يعيش الناس بترف ويتباه ويولون أهمية لما ليس له أهمية ويحرمون

على ماهو بعيد عنهم ولا يحرسون على ماهو يمتلكون اليد. يقدرون الثروات ويطمحون لإمتلاكهم.

أما القديس، بالعكس، فلا يفكر إلا بحب الناس ويعتمد على الواجب، يميز الشيوخ حتى الأمور الصغيرة للغاية ويسأل السماء والأرض، من لا يستسلم أمام الخطر ولا يتردد عندما يمتلك الحرية، تقوده الطيبة والفضيلة.

الطيبة لا تخفي نفسها، ولكن لا تظهر علناً. يتمسك القديس بالقانون الأول للعالم، وفي الحياة اليومية، يمارس الفضيلة وفي أوقات الفراغ، يمارس محبة البشرية. إن كان له سلطة، فيمارسها وفقاً للعدالة.

وفي تسوية القضايا، من الأنسب، في بادئ الأمر، وضع العنصر الأكثر بساطة وذلك لكي ينمو ويعمل، فيما بعد، العنصر الأكثر أهمية، مثلما نفعل عندما نرسم دائرة بالفرجار.

عندما يحكم القديسون بصفة ملهين، مثل رأس الفرجار الجاف، الحكماء ينجزون الأمور العظيمة مثل رأس الفرجار الذي يرسم الدائرة:

من يُعد خطأً جسورة، يموت مثلما يجب أن تنهار المباني التي أساساتها ليست مأمونة والتي رفعت على وجه العجلة. لذا يعود القديس لكتب الشرائع مثلما يراقب العامل عمله بواسطة مستوى الماء والمطمار. إن كانت الفضيلة كبيرة، القوة تذهب بعيداً. إن كان العنف كبيراً، تكثر الكبرياء.

أولئك الذين تقع على عاتقهم مهمة السهر على الإمبراطورية، يجب أن يظهروا حازمين طيبين ومتفهمين. وأولئك الذين يساعدون الملوك يجب أن لا يخضعوا رغبة بالمصالحة. يجب على الملك أن يحكم بالطيبة. وكذلك يجب على الوزير أن يخضع بصورة معقولة، وفي القرى يتم الحكم بالطيبة البسيطة للغاية ويجب أن يكون المسؤول متفهماً عندما يقدم تقريره إلى البلاط.

ومثلما تزين عفة المرأة أعمالها، كذلك الذكاء المتلقي للموظف يثبت قيمتها..
ال/يانغ/ (العنصر الذكري) يثبت الحياة بفعل طيبته، ول/ين/ (العنصر الأنثوي) يؤدي إلى الطاعة بفضل قابلية التلقي.

الطيبة تخلق الانسجام بين السماء والأرض.

الطيبة هي القانون الأول للكون. وقابلية التلقي هي موضع تأمل القديسين. أولئك

الذين يدرسونها يستثيرون. وأولئك الذين فقدوها تغشى عقولهم، وأولئك الذين يتعدون عنها يهلكون.

من يراعي الطيبة هو في مأمن ومن يعتمد على قابلية التلقي يصبح قوياً.
المتلقون يعطون القدوة، البلهاء يُفْتَنون ويفتنهم العنف والحكماء ينظمون وتنظمهم قابلية التلقي.

وفي الأبدية، إن كنا لن نرى الإضطرابات، فذلك سيكون بفعل الطيبة وقابلية التلقي.

الفصل الخامس

الد/لي /

أو الطقوس أو آداب السلوك

الإنسان المهذب يتجنب وضع قدمه حتى على ظل جاره

التهذيب:

لقد أدخل كنفوشيوس مبدأ آخر في الحضارة الصينية وهو مبدأ ال/لي/. تترجم هذه الكلمة بصورة عامة بالطقوس. ولكن الأمر يتعلق أكثر بكثير من المظاهر الخارجية للسلوك. كان /كنفوشيوس/ يردد باستمرار أن ال/لي/ الحقيقي يأتي من القلب ويمكن ترجمتها أيضاً بـ/الأدب/ و«اللباقة» و«التهذيب». إذا اعتبرنا أن الأدب والتهذيب استعدادات داخلية بقدر ما هي طرق للسلوك الخارجي. وفي كتاب «أحاديث» يقول كنفوشيوس: لا تنتظر إلى أي شيء لا يكون «لياً». لا تصغ إلى أي شيء لا يكون «لياً» ولا تقول أي شيء لا يكون «لياً»: لا تقوم بحركة لا تكون «لياً». والتميز يفرض نفسه أكثر فأكثر إذا ما قارنا مبدأ كنفوشيوس بـ/الفا/ (قانون) المشرعين في القرن الثالث قبل الميلاد. فشرعية /خان/ في تسو/ تكسي أهمية تاريخية خاصة لكونها تمثل تياراً فكرياً «عملياً» وتاريخياً الذي، بأشكال أخرى، بُعث في ماركسية ماوتسي تونغ. كان /خان/ في تسو/ يبحث عن حل وسط بين الطاوية والواقعية، فوجده في المفهوم الاجتماعي المبني على أساس قانوني وسلطوي. هذا المفهوم على جانب كبير من الأهمية يستحق دراسته

مدرسة القوانين:

كان /لاو - تسو/ وأتباعه يريدون أن يعيش الشعب الطبيعة الجهرية، كانوا يعارضون محاولات الثقافة الشعبية للكنفوشيوسيين ويرون فيها خطراً كبيراً. يد أن الشعب لا يتألف فقط من المتصوفين: إن تطوير الطاوية إلى أقصى الحدود يؤدي إلى الفوضى لأن، عدم الفعل، ليس له قيمة إلا إذا عاش المرء هذه الحالة من الداخل. لقد حاول /مانشيوز/ دمج هذه الفكرة العميقة للطاوية بمذهب كنفوشيوس وذلك بإحلال ال/جين/ (الإنسانية) محل ال/لي/ (الأدب). لقد حاول كنفوشيوس نفسه إعطاء أساس أخلاقي لمذهبه عن الحكومة. وقد رأى الشرعيون أن هذا الأساس الأخلاقي

مستحيل وأكدوا أن النظام الاجتماعي لا يمكن أن يتحقق إلا بالوسائل الخارجية وتقنية تؤدي في الحياة العملية، إلى المكيفالية. أما /ماوتسي تونغ/ الذي درس في شبابه /لاو تسو/ فقد لجأ إلى ماركس ولينين عن طريق جان جاك روسو (العودة إلى الطبيعة).

لقد راج سوق الشرعويين في زمن الإمبراطور /تشين شيخوانغ/ الإمبراطور الأصفر. لقد حكم الصين بأسرها ولم يهمل أي شيء يمكن أن يعزز سلطته. يزعم /سماتشان/ أنه قد أشرف على الموازين والمكاييل. وأحرف الكتابة وقانون السير.

كتب مؤلف، مجهول الهوية، معاصر للإمبراطور الأصفر في معرض تعقيبه على للذهب الكنفوشيوسي عن البيئة الدائمة يقول:

ما من أحد غير ابن السماء له الحق في تحديد قواعد

ال/لي/ وعاير الموازين والمكاييل وشكل أحرف الكتابة.

ومن الآن وصاعداً، ستكون لمخاور العربات نفس الأبعاد،

وستكتب الكتب بنفس الأحرف وستكون

قواعد السلوك متعائلة.

لا ينطوي هذا النص على أي نقد للـ(توحيد) الشرعوي، ولكن المؤلف يشدد على أن ال/لي/ يجب أن يستند إلى ال/تي/ (فن العيش). إن كان الإمبراطور لا يمتلك ال/تي/ فهناك خطر حقيقي برؤية تحول ال/لي/ إلى ال/فا/ (القانون). وهذا يذكر بتحذير المسيح بخصوص الحرف الذي يقتل والروح التي تحي. وكان /خان في تسو/ يدرك تمام الإدراك أن الشكليات المبالغ بها تؤدي إلى العبث. والبرهان هذه الحرافقة الحكيمية التي تنسب إليه.

القياس المضبوط:

كان أحد سكان بلاد /تشين/ يرغب بشراء حذاء. أخذ مقاسات قدميه بعناية سجلها، وتوجه بعد ذلك إلى السوق حيث شاهد زوجاً من الأحذية يبدو مناسباً له، ولكن تبين له أنه قد نسي في بيته اللوح الصغير الذي كان قد سجل عليه المقاسات. عاد إلى البيت بسرعة ولكنه عندما رجع إلى السوق. كانت ساعة الإغلاق قد انقضت ولم يحصل على حذاء جديد، شاهده أحدهم خائب الأمل، فسأله: لماذا لم تحاول تجربة الحذاء منذ قليل؟

- لم أكن أستطيع، رد عليه. تصور أن لا يكون له نفس المقاسات التي كنت قد سجلتها!

يمكن مقارنة هذه الحكاية بعبارة /ماوتسي تونغ/: من يريد إدخال الأساليب الروسية إلى الصين يشبه ذلك الرجل الذي يتر إيهامي قدميه بحجة أن بابوجه ضيق للغاية. إن الكنفوشيوسيين والطاويين متفقون على الأقل حول النقطة التالية: يجب على الملك أن يملك /تي/ (فن العيش) إلا أن اختلافهم يبدأ بخصوص تطبيقاته وهذا ماسيكون موضع بحث في الفصل ما قبل الأخيرة.

يرى /يانغ تشو/، المكيغالي الصيني خريج مدرسة القوانين أن القوة تؤدي إلى حق ازدياد كل مذهب حكم مبني على الأخلاق. أما بالنسبة للكنفوشيوس، فعلى العكس، يرى أن الأخلاق هي الهدف الحقيقي للحكومة، وكان يعود دائماً إلى هذه الفكرة.

الحكومة الصالحة:

كما رأينا أعلاه، لقد صاغ كنفوشيوس حوليات الرباع والخرف كدليل عملي لحكم الدولة. ويبدو لنا أنه لمن المفيد أن نعطي لمحة عن بعض الأحداث التاريخية القديمة المستلهمة من نفس المبدأ. ولكنها تتعلق أكثر بقضايا «تقنية الحكم» وخاصة بمسائل الـ/تي/ (فن العيش) والـ/لي/ (طقوس) الإمبراطور مما تتعلق بالأحداث السياسية والعسكرية وذلك بخلاف عادات الكثير من المؤرخين الغربيين عن الصين الذين يهتمون هذه القضايا ولا يولون اهتمامهم إلا للمعارك.

تاي تسو:

نبدأ بالإمبراطور /تاي تسو/ (تسو العظيم) مؤسس سلالة /سونغ/ حكم من عام ٩٦٠/ إلى ٩٧٥/، ولكن الخمسة عشر عاماً كانت كافية ليثبت أنه ملك عظيم يجمع في شخصه جميع خصائص الإمبراطور الصيني. ويظهر لنا كاتب الحوليات الإمبراطور /تاي تسو/ كواحد من الأمراء الأكثر إنسانية لكافة العصور، لقد وضع العديد من الملوك أنفسهم طواعية تحت سيادته بسبب طبيعته الكبيرة.

وخلال شتاء قاس بوجه خاص، قام بتوزيع جميع الفروات التي وجدها في القصر

على الجنود معرباً عن أسفه الشديد لأنه لم يكن عنده أكثر منها حتى يكسو الجميع. وخلال حصار /كانكين/ التي تمردت، أصر على جنralاته وضباطه الإلتزام بعدم قتل أي من سكان المدينة لقد هلك بعض المحاصرين خلال موجة من الدعر العنيف، لقد شوهد الإمبراطور يتفجر متحجاً، أمام هذا المشهد غير العادي، ثم صرخ عالياً: «اللعة على الحرب التي تهلك الأبرياء!» فقام بتوزيع مئة ألف كيل من الأرز على السكان الجائعين.

كان /تاي تسو/ يكرم الأدياء والعلماء ولم يكن يرد عنهم شيئاً وكان يتحدث معهم كل يوم. وذات يوم سأل أحدهم ماهي أسس الحكم الصالح، أجابه أحد العلماء «حب الشعب، والسيطرة على الأهواء» رسم الإمبراطور هذه الجملة على لوح احتفظ به تحت أنظاره.

لم يكن /تاي تسو/ يتردد بالجلوس على مقاعد المدرسة وكان يقول لحاشيته: «ليدرس أطفالكم لأطول مدة ممكنة، فالجميع سيستفيدون من ذلك». كان يحظر على المحاكم العادية إصدار الأحكام بالموت وكان يقول: «الحياة البشرية أثمن ماهو موجود تحت السماء».

كانت المحاكم المدنية العليا وحدها تمتلك سلطة إصدار الأحكام بالموت التي كانت تخضع لمصادقة الإمبراطور عليها.

تاي - تسونغ تانغ:

/تاي تسونغ تانغ/ (٦٢٧ - ٦٤٩)، ملك آخر عظيم، وهو الإمبراطور الثاني لسلالة /تانغ/. حين تولى الحكم، أرسل ثلاثة آلاف امرأة إلى عائلاتهم وأغلق الحرم والتزم بدقة متناهية بالزوجة الواحدة. وأصبحت زوجته أفضل مستشاريه. وهذا ما فعله فيما بعد الإمبراطور /فونغ وو/. عندما زار /تاي تسونغ/ السجن؛ أطلق سراح مائة وتسعين محكوماً عليهم بالموت للإشتراك في أعمال الحصاد وذلك لقاء وعد بالعودة للسجن. وبالفعل عادوا جميعاً إلى السجن بعد إنتهاء الحصاد. تأثر الإمبراطور أشد التأثير - وهذا واضح في رواية المؤرخ. فأصدر عفواً وأطلق سراحهم بدون شروط هذه المرة وأصدر الرسم التالي:

من الآن وصاعداً، يتوجب على الإمبراطور أن يصوم ثلاثة أيام قبل أن يصدر حكماً بالموت. وبالصوم يجب أن يفهم الإمتناع عن الموسيقى والنساء وعن تناول

الطعام إلا الطعام الرديء، ويجب أن يقضي كل وقت بالصلوات. فإذا، بعد هذه الأيام الثلاث، رأى أن الحكم بالموت أفضل من النفي، عندئذ ينطق به.

إنتم الامبراطور طوال حياته بهذه القاعدة. أن يصلي إمبراطور دولة عملاقة من أجل نفس أكثر القتلة فظاظة ويحرم نفسه من ثلثات الحياة يذكرنا بذلك الحاكم لولاية أمريكية الذي كان يشرب الشمبانيا وهو يرفض اللجوء إلى العفو عن ساكو وفانزيتي^(٥) احتفالاً بهذه المناسبة.

إن منع تحول العدالة إلى انتقام يرهن على السيطرة على الذات. كان /تاي تسونخ/ يدرك ذلك تمام الإدراك. وهذا ما يظهر في كتاب المرأة الذهبية الذي رفض نشره خلال حياته. وفي هذا الكتاب يشرح مبادئ فن الحكم، في منظور مرآة ملوك /لو - كيا/. إن ما يميز طريقة تفكير الإمبراطور وهو أنه أورد إلى جانب قانون العقوبات قانون المكافآت. وما نحن بعيدون عن مفهوم من أصل أفلاطوني ومفاده أن مكافأة العمل الجيد هو هذا العمل بذاته.

وهذا مقطع من كتاب المرأة الذهبية:

كل يوم، بعد أن أكرس الوقت الضروري لإدارة شؤون الإمبراطورية، كان يلذ لي دراسة تاريخ الماضي، كنت أدرس أخلاق كل سلالة والنماذج الجيدة والسيئة للملوك وأدرس الثورات وأسبابها.

كنت دائماً أستفيد من ذلك. ولقد تأملت كثير أجميع هذه الأمور التي أستطيع، من الآن وصاعداً، التحدث عنها عن خيرة. عندما أسألك كيف يمكن أن تحدث الإضطرابات والثورات في التاريخ مع أن جميع الملوك يتطلعون إلى الحكم بهدوء وإلى تأمين العرش لذريتهم، لقد كنت أتوصل عادة إلى الاستنتاج بأن الأمراء لا يتأملون أنفسهم تأملاً كافياً، وأن حاشيتهم تمتعهم بصورة عامة من سماع ما يمكن أن يقلقهم، ولذلك يظلون حتى النهاية جاهلين لواجبهم ولأخطائهم. هذا الجهل هو السبب الوحيد

(٥) قضية ساكو وفانزيتي: قضية قضائية أمريكية أخذت بسرعة أبعاداً سياسية واجتماعية وأثار الظلم فيها احتجاجات قوية في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم على حد سواء. ففي عام ١٩٢٠ اعتقل ساكو وفانزيتي، مهاجران من أصل إيطالي كانا مناضلين قوسوين، كمشبه بهما بجرمة قتل أمين صندوق وحارس مصنع. حكمت المحكمة العليا لولاية (سانتوسمتسي) عليهما بالإعدام ١٩٢١ ونفذ الحكم عام ١٩٢٧ رغم اعتراضات سجين آخر تؤكد برائتهما ورغم الحركات التي شكلت لصالحهما ومطالب بإطلاق سراحهما.

لضياعهم. وللإفلات من هذا الخطر، ألقت لنفسي هذه المرأة التي أستطيع أن أرى فيها أخطائي ووسائل إصلاحها.

إن هذا الإمبراطور الذي كان يحرص على التوفيق بين الـ/لي/ (الطقوس) والـ/تي/ (فن العيش) كان عنده، في الحقيقة، مفهوم سام لواجب الملك.

خونغ وو:

إن الإمبراطور الثالث الذي تقدمه هنا هو /مينغ تاي تسو/ المشهور أكثر باسم /خونغ وو/، مؤسس سلالة /مينغ/ لقد حاول الكثير من المؤرخين الغربيين زعزعة المكانة التي كان يحتلها بها وذلك بالتشكيك بصحة حوليات حكمه ولكن معظم هذه الكتابات لم تشر إلا بعد وفاة الإمبراطور الذي لم يستطع إذن، ممارسة أي ضغط على الكتاب. إن الكثير من المؤرخين لديهم، فعلاً، هوس إثبات أن الشخصيات المشهورة لم توجد أبداً وأن الشهرة مغالى فيها وأن النصوص مزورة. إننا نأخذ هنا برأي صينيين فرنسيين أميوط ويوسيه اللذين يعتبران أن /خونغ وو/ رجلاً فذاً. وفي كتاب لم ينشر أبداً ولكن مخطوطة موجود في المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس تحت عنوان /مينغ تاي تسو/. يقول أميوط:

«بالإمكان الإعتماد على كل ما روته عن مؤسس /مينغ/. لم أقل أي شيء إلا حسب القصة الحقيقية وحسب كتاب /مذكرات تصلح لتاريخ سلالة /مينغ/ من أوله حتى نهايته/ تأليف /فو - إي - تشانغ/ المشهور بلقب «كبير معلمي مذهب الإمبراطورية» إلخ. و/كو - اينغ - تاي/ المشهور بلقب «رئيس الأدباء» في مقاطعة تسى. لقد طبع الكتاب عام ١٦٨٥ ميلادية.

لحقة عن السيرة الذاتية للإمبراطور /خونغ وو/ حسب أميوط (نقله بوسيه).

الإمبراطور خونغ وو /١٣٦٨ - ١٣٩٨/:

إن مؤسس هذه السلالة الصينية الكبيرة المشهور هو، كما سبق ورأينا، ابن فلاح فقير. لقد سأم من الوظائف المذلة التي كان يكلف بها في دير رهبان البوذيين. انضم إلى حزب الثوار الذي تشكل ضد السيطرة الأجنبية التي كانت الصين ترزح تحتها وأصبح بعد مدة قليلة القائد الأكثر ذكاء والأكثر مهارة.

لا يوجد في العالم أمة تنال فيها الجدارة جزاءها المشروع لأعمالها بصورة أتم وأسرع

مما تناله في الصين. لا يوجد مكان في العالم يستخف فيه تمام الامتخفاف باعتبارات العرق والنسب مثلما هو الحال في الصين. كل إنسان. يقول الصينيون، يعرف الاستفادة من مصادفة الظروف لتكوين ثروة والإرتقاء فوق وضعه لديه ميزة ما. ولكن أن يستطيع إنسان من وسط فقير إلى أقصى الحدود ومن وسط الحالة الأكثر وضاعة والأكثر بشاعة شق طريقه إلى أعلى المراتب الإنسانية ويجلس، بجز وفخار، على العرش الأول في الكون لا بد وأن يكون، بلا شك، رجلاً يتمتع بميزات التفوق، ورجلاً عظيماً فذاً متلوّاً ليحتل مكان السماء، ليحكم بني البشر على الأرض.

لقد رأينا كيف عرف هذا الإمبراطور الاستفادة بمهارة من إنتصاراته كفائد حزب وأن يجذب إليه محبة الشعب. وعندما أصبح سيداً للمدينة، ومسقط رأسه، توجه إلى مدفن العائلة وسجد عدة مرات وهو يضرب التربة بجبينه ثم جلس وقال لجنرالاته: خلال السنوات الأولى من حياتي، ولكوني ليس إلا ابن فلاح مسكين، لم أكن أطمح بثروة إلا بثروة أبي. وعندما دخلت في الخدمة، لم تكن لدي رغبة أخرى سوى الرغبة في أداء واجبي. وهل كان بإمكانني أن أأمل أن أعيد السلام إلى الإمبراطورية؟ بعد أكثر من عشرة أعوام من الغياب، أعود مع بعض المجد إلى وطني، وبالقرب من قبور أجدادي لقد وجدت فيها المسنين الذين كنت قد تركتهم فيها. وعندما غادرت بيت أبي للانخراط في القوات المسلحة كجندي بسيط، رأيت الضباط الأكثر شجاعة والأكثر تقدراً يسمحون لجنودهم بخطف النساء وأطفال الشعب ويسلبون كل ما يملك الشعب. غضبت من أعمال اللصوصية. تأملت أشد الألم لرؤية الضحايا النساء تجاسرت برفع صوتي لإحتجاجاً وتوجيه اللوم لأولئك الذين يسمحون بذلك، ولكن عندما وجدتهم لا يعيرون أذنأ صاغية لإحتجاجاتي، اتخذت القرار بالإنفصال عنهم. جمعت ضباطاً يطيعونني وأوصيتهم أن لا يسمحوا في صفوف قواتهم بمثل هذه الفوضى الكبيرة وأن يراعوا الشعب بكل شيء وإعلامه بأننا لم نحمل السلاح إلا لتخليصه من البؤس ولتوفير السلام الوطيد له. لاشك أن السماء المبجلة قد أقرت سلوكي بما أنها انتشلتني من الحالة الوضيعة حيث ولدت وبما أنني بلغت شرف أن أكون قائداًكم.

البحث عن الكتب:

حينما لم يكن /خونغ وو/ في عام ١٣٦٦/ سوى أكثر جميع المتنافسين حكمة وقوة في إمبراطورية المنغول، ولم يكن سوى ملكاً على البلد الواقع إلى شرق وغرب

نهر /هوانغ هو، أمر بالبحث الدقيق عن الكتب ووضع نسخة أو نسختين من كل كتاب يتم العثور عليه في مكتبته الخاصة، وأحب كثيراً الكتب، قال للنبل والأدباء من حاشيته، لأن المرء يتعلم من الكتب واجباته وأناي لأشعر بالقضب لأن الحياة التي عاشتها حتى الآن لم تترك لي متسعاً كافياً من الوقت لاستعماله في قراءة متواصلة أكثر. لقد بذلت مافي وسعي لكي أعوض ذلك بأحاديثي الكثيرة مع الأدباء لئجمع كل الكتب إذ أخشى كثيراً أن تكون السنوات الكثيرة من الاضطرابات والفوضى قد أدت إلى ضياع الكثير من المؤلفات التي تستحق أن يُحفظ بها.

سفراء الدول الأجنبية:

خلال السنوات الأولى من حكمه، استقبل /خونغ وو/ سفراء أربعين مملكة أجنبية. كان يوجد أسد من بين الهدايا التي قدموها له. وكان أول أسد، يقول التاريخ، قد شوهد في الصين. لقد استقبل أيضاً موفدين من كوريا، اليابان، جزر فورموزا، جزر استراليا، مملكة سيانغ. لقد حمل سفير /سيانغ/ رسالة خطية للإمبراطور كتبت بأحرف ذهبية.

عبرة يتقلها إلى ابنه:

قبل أن يصبح تماماً سيلاً للصين، أقام /خونغ وو/، الذي يبيع ملكاً. بلاطه في / نانكين/. لقد شيد فيها قصراً ومعبداً للأجداد وجميع المباني المعدة وفقاً للأعراف الصينية لممارسة السلطة العليا. كما أنه بنى معبداً خارج سور المدينة لتقديم ضحية المدار الشتوي. بعد أن قرر تقديم هذه الضحية في القمر الحادي عشر من عام ١٣٦٧، اصطحب معه الابن الذي كان بعده ليكون خليفته، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال، اصططحه للريف ليعطيه درساً من الدروس المؤثرة التي لايمكن نسيانها سيما وأن طابعها كان رصيناً واحتفالياً: «انظر يا بني، قال له، إلى جميع الحقول. تمحص بأي نشاط يعمل كل هذا الحشد من الناس الموزع هنا وهناك! ذلك لأن الوقت الآن هو الوقت الذي تسترد فيه الأرض البثار المخصص لإنتاج الثمار في الموسم التالي. إن هؤلاء الناس المساكين يعملون من أجلنا ومن أجل إطعامنا طوال العام. يضنون أنفسهم من التعب وسيكونون في غاية السعادة إذا، بعد أن أنهكوا هكذا، مايقى لهم مايكفل لهم استعادة قواهم بالغذاء الأكثر رداغة.

إن كل ثمار عملهم لنا. كان أبائنا من طبقة هؤلاء الناس. رأيتهم يروون الحقول بعرقهم. لقد كنت شاهداً على يؤسهم. لو لم يكن لدي القدر الكافي من القوى لكنت اليوم كما كانوا ولما كنت أنت سوى ابن فلاح أو حراث.

لقد دبرت السماء على نحو آخر، ولهذا السبب يجب أن لا تنسى حالة الوضاعة التي انتشلتنا منها السماء لتضعنا في ذروة الأمجاد. وهكذا يابني، تذكر أحياناً في ذهنك حديثنا في هذا اليوم، فذلك سيلهمك مشاعر الشفقة على رعاياك الذين يكرسون وقتهم في العمل كما يدفعك للتخفيف عنهم ويمنعك أيضاً من أن تترك الكبرياء المجنونة تسيطر عليك.

لقد التزم العديد من الأباطرة بهذا السلوك. والإمبراطور/ تسي تونغ/ (٩٥٤ - ٩٥٩) كان أكثر الأباطرة إدراكاً لأصوله. لقد ذهب إلى حد وضع عربة ونول في قصره لكي لا ينسى أبداً وضع أجداده.

خونغ وو يرقى:

لقد رقى /خونغ وو/ حفيد كنتوشوس من الجيل الخامس /كونغ هي هيو/ إلى مرتبة كونت الإمبراطورية إعترافاً منه بالجمل، قال له ذلك بحضور جميع البلاط، لما خلفه جده الكبير للأجيال القادمة، في كتاباته الخالدة، من مبادئ أساسية للحكم الصالح طالما بقي أناس يحكمون. تلك المبادئ التي بذل هو نفسه قصارى جهده لوضعها موضع التطبيق.

/خونغ وو/ يصبح إمبراطوراً:

لم يعد يسيطر آخر إمبراطور منغولي إلا على بعض أجزاء مقاطعة /بي تشي لي/. وكان جنرالات /خونغ وو/ وحاشية البلاط. إذ سبق وأن أصبح عنده حاشية يحثونه على إعلان نفسه إمبراطوراً.

«خلال فترة وجيزة، كانوا يقولون له، ستتحرق تماماً من جميع هؤلاء الأجانب. ونحن لم نعد نستطيع مقاومة أمتية الأمة لفترة طويلة».

«وما أن السماء والناس يريدون ذلك، أجايبهم، أستسلم»

وفوراً أعلن أمام السماء والأرض أنه سيأخذ لقب الإمبراطور ليس يدافع الطموح أو لأسباب مشابهة ولكن فقط لإطاعة السماء التي تجلت أوامرها

بصوت السكان ولسان حالهم الوزراء والنبلاء وكبار الموظفين. أرسل جنرالاته لإخضاع ماتبيقي من حزب المنغول وزعماء المتمردين الذين كانوا منافسين له. بقي في بكين هادئاً.

ولكن ليس عاطلاً عن العمل، إذ اهتم، عبر مؤسساته الحكيمه، بتوطيد عظمته التي لم تكن ترتكز بعد إلا على انتصاراته العسكرية وكعدو للبذخ، مثل تقريباً جميع أولئك الذين سمحوا بجدارتهم والذين يريدون أن يظهروا منسجمين مع قدرهم، شرع، بعناية، في إصلاح جميع النفقات الهائلة التي جعلت بلاط التار مقبلاً في نظر الشعب. هدم الأبراج والقصور الفخمة التي كان المنغول قد بنوها في بكين، واستبدل بزينات من النحاس، الصور الذهبية والفضية التي كانت تلمع على العريبات والأثاث. وعندما كان أحد النبلاء يعرض له الحسارة التي سيحدثها هذا التغيير وضرورة الحفاظ على هذه الأشياء غير الضرورية التي تزيد من الأبهة الخارجية لمقامه: «إن مجد الأمير، أجباه/خونغ وو/ ليس بامتلاك أثاث فخم وغير ضروري ولكن بأن يكون سيداً لشعب وبأن يجعله سعيداً. لدي كل الإمبراطورية كمنطقة نفوذ. هل سأكون أكثر فقراً عندما أقتد بعض أنواع الأثاث غير ذي نفع؟ إن أصبحت أكبر قدوة للبذخ، كيف سيكون بمقدوري أن أدبته عند الرعية؟».

تبنى الإحتفالات والطقوس القديمة:

قدم رؤساء الطقوس والإحتفالات عريضة للإمبراطور في الشهر القمري الثاني من السنة الأولى لحكمه (١٣٦٨)، بعد أن أوضحوا أنهم لم يجدوا شيئاً أكثر إجلالاً من الإحتفالات التي كانت تجري في ظل الملوك القدماء للإمبراطورية، قالوا أنهم يعتقدون بوجود التمسك بها ورجوا جلالته أن يحدد بواسطة سلطته أن تقدم أضحية مدار الصيف على مذبح مربع وأضحية مدار الشتاء على مذبح دائري، وأن يعيد سريان مفعول عرف أضحية البحار الأربعة والجبال الخمسة للمسماة /ايو/، وأن يضحي الإمبراطور في كل فصل من فصول السن في مصليات خاصة حيث يوجد ألواح الأجداد من سلالة وأن يقدم الأضحية ويقيم الإحتفالات الجليلية، في نهاية العام، في /تاي - مياو/ المعبد العالي تكريماً لجميع الأجداد بصورة عامة. وأخيراً أن يجري تقديم تضحية رسمية مرة أو مرتين في العام تكريماً لأرواح الأرض وذلك مرة في الربيع ومرة في الخريف. وضع الإمبراطور ختم موافقته على مختلف هذه المواد وعلى مواد أخرى قدمت له لإتمام إزالة من عقل الشعوب حتى ذكرى السلالة التي على أنقاضها أقام

سلالته ثم أصدر مرسوماً يلزم الرعية بإرتداء الملابس الصينية مثلما كان الصينيون يلبسون في ظل سلالة /تانغ/.

سبق لنا وأن قلنا الإمبراطور الجديد الذي قضى على السلالة المنغولية قد هدم القصور الفخمة التي شيدها المنغول في بكين واستبدل بزينات من النحاس الصور الذهبية والفضية التي كانت موجودة بوفرة في كل مكان، بل فعل أكثر من ذلك، فقد أمر أن يوضع هذا الذهب وهذه الفضة وجميع الأحجار الثمينة والأقمشة الثمينة في الخزانة العامة لكي تستخدم لإحتياجات الدولة وللتخفيف عن الشعب، وعلاوة على ذلك، فقد سمح لجميع النساء اللواتي كن في القصر الإمبراطوري بالعودة إلى ذويهم، واتخاذ القرار الذي يروونه مناسباً.

لم ينفذ بدقة الأمر بوضع كل ما هو ثمين تم العثور عليه في الخزانة العامة. إذ اعتقد أنه يجب ترك العربات التي كانت مزينة بزينات ذهبية على حالها. لقد أزال الإمبراطور الذهب واستبدله بالنحاس. لكن اعتقد أن الاحتفاظ بألة ثمينة جداً وعجيبة للغاية كانت تعرض الحرس وهم يقومون بالحراسة الليلية يؤدون حركات عديدة في زمن محدد وفقاً تختلف فصول السنة وذلك بواسطة نوابض مخبأة داخل الآلة. لقد رجحت الحاشية الإمبراطور الاحتفاظ بها لفراحتها وجمالها، تفحصها الإمبراطور باهتمام كبير ثم استدعى نحو أفراد الحاشية وقال لهم: من أجل مثل هذه التفاهات أعمل آخر أباطرة سلالة /يوان/ العناية بالحكم وفقدوا الإمبراطورية. ومن أجل تزويده بها، واستفد كبار الموظفين قوت الشعب. لتدمر هذه الآلة عدية الفائلة وتوضع موادها في الخزانة العامة.

لقد رأينا للتو، أن الإمبراطور /خونغ وو/ كان إحدادي الزواج وهذا أمر استثنائي بالنسبة لإمبراطور صيني. كان يحذو حذو /تاي تسونغ تانغ/ الذي سبق وأن تم ذكر والذي كان يناقش أمور الحكم مع زوجته. كان /خونغ وو/ هو الآخر يطرح على زوجته كل مساء هذا السؤال «يا زوجتي الغالية، ماهي مشاركتي؟». كانت توصيه أوقات الشدة وتعلمه التواضع في أوقات الازدهار والسيطرة على أهوائه في جميع الظروف.

لقد كتب /غونزالاف/ بهذا الصدد: «كانت زوجته التي تزوجها عن حب أخلص دعم له، ففي حين كان يتعرض على أصلها المتواضع وتقدم له أجمل نساء البلاد، ظل /خونغ وو/ متعلقاً بزوجته. توفيت قبله. ولكنه لم يجد أبداً العزاء والسلى. نادرات

النساء اللواتي يمكن مقارنتهن بزوجة /خونغ وو/ التي كانت توفر له الراحة، والهناء في المنزل وفي الحكم. كانت دائماً مستعدة لمواجهة الكوارث».

خطاب رأس السنة الحكومي، ورد الإمبراطور عليه:

بدأت السنة الثانية من حكمه /١٣٦٩/ كما تبدأ السنوات الصينية وذلك بجمعية عامة للأمرء والأشراف وكبار الموظفين لختلف المناصب. كانوا يتوجهون معاً إلى القصر لتقديم واجباتهم وأسمى آيات الاحترام وفقاً للمراسم المعمول بها، وبعد انتهاء المراسم، خطب الإمبراطور وهو جالس على العرش قائلاً: تتمنون لي كافة أنواع الإزدهار وأسعد حكم. إن قسماً من ذلك يتعلق بكم. ساعدوني بكامل قواكم في حكم رعيتي وإسعاد شعوبي وبذلك تجعلوني سعيداً. لا أستطيع أن أكون في كل مكان في نفس الوقت، ولا أستطيع رؤية وسماع كل شيء. فعليكم أنتم أن تعلموني وأن تقودوني إلى الصراط المستقيم إذا ما ضللت الطريق. إن أباطرة /يوان/ قدودوا أميرطوريتهم لأنهم لم يحكموا جيداً. يوجد من بينكم الكثير من كبار الموظفين الذين خدموا في عهدهم، ولا بد أنهم لاحظوا عيوب الحكم. إنني أدعوهم أن يقولوا لي ما يفكرون به حتى أترم جانب الحذر لكي لا أقع في نفس الهوة التي وقعوا فيها.

الإمبراطور يستكر الترقية بإقامة نظام حكم يقوم على التخويف إقترحه أحد كبار الموظفين:

رأى أحد كبار الموظفين يدعى /ماي - اي/ وهو رجل نزيه يقوم بواجباته على أكمل وجه، ولكنه كان قاسياً بطبعه، رأى أن ما من أحد يتأهب لتلبية طلب الإمبراطور، فأعتقد أنه يليه عندما قال: إن الليونة المفرطة التي كان يستعملها أباطرة /يوان/ في طريقة الحكم كان سبب ضياعهم. لقد كان كبار الموظفين والشعب يتمتعون بحرية كبيرة في ظل حكمهم. لا بد بحكم الضرورة من القسوة لأنه بدون مجازفة لا يمكن التغلب على أي شيء. ولو كان أباطرة /يوان/ أكثر صرامة وقسوة لكانوا ما يزالون إلى اليوم أسياد الإمبراطورية.

- تحفظون، أجاب الإمبراطور، بقولكم أنه لا يمكن قيادة كبار الموظفين والشعب بكثير من الليونة، فالليونة نحصل منهم على كل ما نريد ولدي التجربة في ذلك. إن الحيل الذي نريد شده كثيراً ينقطع والشعب الذي يعامل بقسوة يلجأ إلى أقصى حدود

التطرف. إنكم تخلطون بين الليونة والإهمال وبين الاستقامة والصرامة. هذا ما ينبغي تميزه جيداً. إن الأباطرة الحكماء القدماء كانوا يحكمون بالتأكد بكثير من الليونة ولكنهم يحرصون على أن تراعى القوانين. ولكن الحال لم يكن على هذا النحو في ظل آخر أباطرة /يوان/ إذ لم يكونوا يفكرون إلا في ملذاتهم وكانوا يهملون شؤون الحكم، وكان كبار الموظفين - إقتداء بهم - يهملون لالتزاماتهم الأساسية ولا يفكرون إلا في جمع الثروات لاستخدامها في الأشياء الكمالية والفسق ومختلف أنواع اللهو. وشريطة أن يبتزوا الشعب لإشباع جشعهم، كانوا يطلقون العنان للشعب حول الأمور الأخرى. هذا هو رأيي حول سبب ضياع أباطرة /يوان/. إن الشعب الذي أصبح باتساً في ظل حكمهم لأنه كان يُترع منه كل شيء، تمرد أخيراً. لتجنب نحن العيوب التي لاحظناها عند الذين سبقونا: لنعمل على إسعاد الشعب ولا نطلب منه إلا التقيد بالقوانين والقيام بواجباته، لنجعله قادراً على الحصول على أسباب العيش بسهولة أكبر مما كان عليه الحال كما ذكرنا. إني أعفي الشعب هذه السنة من جميع الضرائب ومن جميع الغرامات.

نلاحظ هنا أن /خونغ وو/ كان يطبق مبدأ «عدم الفعل» يذكر /اييل دميرات/ الرأفة التي أبدلها الإمبراطور /خونغ وو/ مع الأمير المنغولي /مايتيلالا/، حفيد آخر أباطرة /يوان/. كانوا يحثون /خونغ وو/ على تضحية الأسير على مذبح الأجداد وفقاً للعادة. وكانوا يذكرون له كمثال أن الإمبراطور /تانغ تسونغ تانغ/ كان يتصرف على هذا النحو في الظروف المماثلة. ولكن بالنسبة لـ /خونغ وو/ إن السلطة العليا هي الضمير وأن ضميره يمنعه من القتل. وهكذا فضل التخلي عن هذا التقليد. ونحن نعرف أهمية التقليد في الصين، ويجب أن نتمن قرار /خونغ وو/ ضمن هذه المنظور: ويضيف /ديميزات/:

وأعرف، أجاب الإمبراطور، أن هذا الأمير قد قتل /وانغ شي تونغ/ في صالة أجداده. ولكن لو كان بين أيدي أحد أفراد عائلة /سوي/ التي خلفتها عائلته، أشك بأنه كان سيتصرف نفس التصرف. لتوضع في الخزانة العامة الثروات الآتية من بلاد /التتر/ لسد حاجات الدولة. أما بخصوص الأمير /مايتيلالا/، فإن أسلافه كان أسياد الإمبراطورية خلال حوالي المئة عام. وكان أجدادي من رعاياهم. ومع ذلك قد يكون معاملة أبناء سلالة يُقضى عليها نحو ما ذكرتم عرفاً ثابتاً، ولكنني لا أستطيع أبداً أن أقر ذلك. أمر الإمبراطور أن يتزع اللباس التري عن الأمير وإلباسه على الطريقة الصينية وأعلنه أميراً من المرتبة الثالثة. خصص له موكباً ومرتباً مناسباً وأعطاه قصرأ له

ولأُميرات زوجاته وبعد مرور بعض الوقت، أرسله إلى بلاد التتر لعند والده وأوصى الملكفين بإصطحابه أن يأخذوا حذرهم حتى لا يصيب أي حادث ذلك الذي يجب أن يواصل عمود النسب للسلالة المنغولية، لقد برهنت التهمة على أن /خونغ وو/ قد عرف كيف يقرن في ذلك الظرف المبادئ الإنسانية بمبادئ الحكمة السياسية.

تعين لجنة لكتابة تاريخ السلالة المنغولية:

في الشهر القمري الثاني من نفس العام، أمر بترتيب مذكرات أصلية صحيحة عما حدث في ظل حكم تسعة أباطرة من سلالة /يوان/ لتأليف منها تاريخ سلالتهم. عين ثلاثة أدباء مهرة للإشراف على هذا الكتاب. وألزمهم بالبحث في جميع أنحاء الإمبراطورية عن أكثر الرجال مهارة في الآداب واختيار ستة عشر منهم لضمهم إليهم. وعلاوة على ذلك، أرسل علماء إلى المقاطعات الشمالية لجمع غير معلومات مؤكدة، أهم ما حدث خلال السنوات الأخيرة من حكم /شون - تي/ لإدخالها في النص التاريخي.

تشجيع الأدباء، تسيهات متبادلة:

منذ أن اعتلى العرش. لم يكف /خونغ وو/ أبداً عن الإحسان للأدباء وتميزهم على جميع الرعية وتشجيعهم على إعطائه آرائهم. لقد استفادوا من تشجيعات الملك لإعطائه، كل واحد منهم على طريقته، قواعد الحكم الصالح. ولم يكن يمر يوم واحد دون أن يقدموا له مشروعاً أو تنبيهاً، كان يتلقاها دائماً بعين العطف، وكانت تُقرأ له كلها. وبما أنه كان يمتلك فن إبداء الآراء أرفع مستوى من مستواه مجتمعين، أراد أن يدي لهم آراءه التي استفادوا منها والتي أسهمت في نفس الوقت في تخليصه من الصور الكثيرة المضجرة والمملة وعدية الجدوى التي كانوا يرهقونه بها، فأمر المناير الأدبية أن يجتمعوا ويتوجهوا للقصر ليستقبلوا بحضرته. وعندما اجتمعوا جميعاً قال لهم: «كان القدماء يؤلفون القليل من الكتب، ولكنهم كانوا يؤلفون كتاباً جيدة. وكان هدف جميع كتبهم هو إلهام الفضيلة والحب والواجب والتعريف بميزة الرجال العظماء من كل الأصناف وإعطاء سبل التقيد بالقوانين والأعراف. يلزمه الكثير حتى تصبح الأمور مثلما كانت عليه في الماضي. إن الأدباء المعاصرين يكتبون كثيراً حول مواضيع لا يوجد فيها منفعة حقيقية. كان القدماء يكتبون ببساطة وكانت كتاباتهم في

متناول الجميع، كان أسلوبهم سيئاً وعباراتهم واضحة، كانوا يقولون الكثير في كلمات قليلة جداً، فهل هناك، على سبيل المثال، ما هو أكثر وضوحاً وأكثر دقة وأكثر تنقيفاً من /تشو سي ياو/ و/تشو كو ليانغ/ ففي هذا الكتاب الذي لا يتألف إلا من عدة صفحات، يعرض المؤلف موضوعه بدقة ووضوح كبيرين، يعالجه بأسلوب بسيط للغاية وفي نفس الوقت رفيع للغاية، كان يدخل في تفاصيل الأسباب من الغنى، وإن كانت موجزة جداً، بحيث يقول كل ما ينبغي قوله ولا يهمل شيئاً مرغوباً به ويجذب الجميع إلى رأيه.

قديماء، كانوا يقرؤون كتابه بلذة ولانزال تقرأه بلذة. بينما لا يكتب أدبائنا المعاصرون على هذا النحو - فأسلوبهم مطنّب ومتكلف. يفرقون الفكرة بسيل من الكلمات وإن كانت هناك عبارة غامضة أو ذات معنيين، فإنهم يختارون بالضبط تلك العبارة، وكأنهم يكتبون حتى لا يفهمون. إنهم مثل /سيانغ جو/ و/يانغ خيونغ/ كانوا يعتبران ماهرين جداً. كانا يعرفان معرفة تامة كافة قواعد التأليف ويستعملونها ومع ذلك فإن كتبهم كانت خالية من الأشياء ولا تعلم شيئاً. أتم الذين على رأس الآداب، ابذلوا جهودكم لإعادة الذوق السليم ولن توصلوا إلى ذلك إلا بمحاكاة القدماء.

لا نقول إن كان هذا الخطاب التأسيسي للإمبراطور قد راق للأدباء الذين كان موجهاً لهم. وعلى كل حال، كانت تلك الطريقة بريئة ومسموح بها للملك حتى يثار لنفسه من الآراء والعروض التي كان الأدباء، الذين كانوا يظنون أنفسهم أنهم أكثر الساسة عمقاً، يقولونه بها.

درس آخر للحاشية:

ذات يوم من الشهر القمري الرابع، كان بعض الأشراف بمهمة التفتيش على أقاليم /خاو - نان - تشين - كيانغ - يانغ تشو - تاي تشو/ قد تلقوا من مختلف هذه الأقاليم عدداً من سوق القمح يحمل كل واحد منها سنبلتين، أو ثلاث سنابل بل وحتى خمس سنابل. قدموها للإمبراطور كدليل على أن الموسم سيكون وفيراً ولم يفتهم التملق والقول له بأن السماء تحايي حكمه بصورة واضحة بما أنها منحت الأرض مثل هذه الخصوبة، وأضافوا بأن ذلك مكافأة له من السماء على فضائل صاحب الجلالة، فرد عليهم قائلاً:

وليس عندي ما يكفي من الفضيلة حتى أستحق أن تكافئني السماء. لست مزهواً

لدرجة أن أقنع نفسي بأنها تصنع الأشياء الحارقة إكراماً لي. أن يوجد سوق قمح تعمل حتى خمس سنابل، فإن ذلك شيء نادر ولكنه طبيعي. ليس في هذا ما يدعو لتهنئتي. قد أستحق التهاني إذا، بواسطة حكمي، فعلت ما من شأنه أن يجعل رعيتي سعيدة وفي حالة وفرة بحيث لا تتدخل بشيء هو من واجبها. لن أنسى شيئاً من أجل أن أستحق مثل هذه التهاني. لقد سررتوني بتقديم سوق القمح هذه التي لها خمس سنابل. أريد من الآن وصاعداً أن أطلع على كل ما يمكن أن يحدث من أمور خارقة على إمتداد الإمبراطورية وأن أطلع في نفس الوقت على الخير أو الشر الذي يمكن استنتاجه منها حتى أستطيع تنظيم سلوكي وفقاً للظروف والإستفادة من الآراء التي يمكن أن تسدى إلي في تلك المناسبة.

مرسوم لترميم المدارس العامة في جميع أرجاء الإمبراطورية:

أصدر الإمبراطور مرسوماً في الشهر القمري الحادي عشر من عام ١٣٦٩ وهذا نصه:

فيما مضى، كان يوجد مدارس عامة في جميع المدن المرتبة الأولى والثانية والثالثة؛ كان يوجد مدارس عام لتعليم الشبيبة. وبسبب إهمال التنغول ومصائب الدهر، إنهارت معظم المدارس وماتبقى منها يُعد على الأصابع. أمر حكام وكبار الموظفين في جميع المدن الإمبراطورية أن يشيدوا المباني الملائمة لهذا الغرض. سأختار بنفسني المعلمين الذين يجب أن يسكنوها وسأبذل مافي وسعي لكي يكون إختيارى جيداً. كان الأباطرة الصالحون يعتبرون التعليم إحدى النقاط الجوهرية التي تتطلب من جانبهم أن يولوها عناية خاصة. كذلك سأسهر على أن تزود رعيتي بوسائل التعليم وبكل المعونات التي يمكن أن تسهل استعمال هذه الوسائل.

ترميم قبور الأباطرة القدماء:

كان الإمبراطور يفكر بكل ما من شأنه أن يكون مستحياً لدى أمته. لم يكن يفوته أي شيء من شأنه الإسهام في إعادة ذكرى السيطرة الصينية إلى ذهن الشعوب، لقد أدى إهمال الأباطرة التنغول وأسلافه إلى تحول القبور إلى أطلال ويقول عنها تقليد عريق في القدم بأنها كانت قبور أشهر ملوك المملكة بدءاً من مؤسسها أمر بترميمها في الشهر القمري الثالث من السنة الرابعة لحكمه (١٣٧١). اختار خمسة وثلاثين موظفاً

كبيراً لإقامة، باسمه الشخصي، طقوس الإجلال على قبر خمسة وثلاثين إمبراطوراً الأكثر تميزاً بقدمهم وبحكمتهم، وصالح حكمهم أو بأعمالهم الحميدة.

واجب جميع كبار الموظفين بالاستفسار عن حاجيات الشعب:

في مناسبة أخرى، كان يخاطب أحد كبار الموظفين من الأدباء فسأله إن كان الشعب مسروراً وإن كان مضطهداً من حكمه وإن كان بحاجة لمعونة خاصة - «يامولاي، أجاهه الموظف الكبير، إني أكرس نفسي بالكامل للدراسة ومشغول بكثي، لذا أجهل ما يحدث في الخارج وبالتالي ليس بمقدوري الإجابة على سؤالك الذي طرحه علي:

«ماذا! رد الإمبراطور بقوة، أنت موظف كبير وتجهل حاجيات الشعب! ولا تستطيع القول ماهي الحالة التي يوجد فيها؟ إذا اخترتك منذ اليوم حاكماً لمدينة ما من الإمبراطورية؟ كيف ستؤدي التزاماتك؟ إن موظفاً كبيراً من الكتاب ليس مندرجاً للإشغال بكتبه وحسب وإنما يجب أن لا يكون هدفه من دراسته سوى أن يعلم نفسه وذلك من أجل أن يصبح قادراً على تعليم الآخرين. ولكن عندما يحصل على الرتب ويصبح من طبقة كبار الموظفين، يجب عليه قراءة كتاب المجتمع المدني الكبير وأن لا يجهل أبداً ما يحدث فيه حتى يستطيع خدمته وفقاً لحاجياته في الوظائف التي أوكلت إليه.

ولم يكتف بتوبيخه على هذا النحو، بل عزله من وظيفته وأرسله إلى المنفى «هناك، قال الإمبراطور، بعد أن أنزله إلى مرتبة الشعب البسيط، هكذا سيتعلم أفضل من الكتب ماهي الدولة، وفيما بعد، إذا توصل إلى الحصول على وظائف، سيكون في حالة أفضل بكثير للقيام بها أفضل مما كان الحال في الماضي.

مؤسسة لرعاية المسنين والأيتام:

أقام نفس الإمبراطور مؤسسات لرعاية المسنين والأيتام الذين لا منند لهم ولا عون. كان ذلك هو أحد الأمور التي كان يوصي بها، على وجه الخصوص، لكبار الموظفين عندما كان يرسلهم إلى الأقاليم. وكان يقول لهم: «أولوا عناية خاصة بالمسنين والأيتام، زودوهم بكل المعونات التي تتعلق بكم. اعتبروا المسنين كأبائكم والأيتام كما لو كانوا أبناءكم».

إقامة المكتبات العامة في كل مدينة:

أراد أن يكون في كل مدينة من مدن الإمبراطورية مكتبة عامة لإرضاء أهل الأدب المتواجدين بعيداً عن العاصمة لذا لم يكونوا يعرفون معظم الكتب، في أغلب الأحيان، إلا بالاسم.

صنع خريطة للإمبراطورية:

حالما أعيد السلام للإمبراطورية، أراد الإمبراطور الجديد معرفة الجوانب القوية والضعيفة والنواحي الجيدة والسيئة لكل مقاطعة، فأرسل أشخاصاً مهرة، لصنع خارطة لكل مقاطعة وأجراء وصف دقيق لها، لقد تم إنجازهما في العام السابع والعشرين لحكمه وقد قدمت له في ذكرى يوم إعتلائه العرش في الشهر التاسع القمري من نفس العام /١٣٩٤/.

شراب الخلود:

.. بعد أن زالت السلالة المنغولية وزالت معها قوة كهنة الديانة اللامية - هؤلاء كان يستخدمون كتاب /طاوتي كينغ/ بمثابة قانون الصيغ السحرية - سعى هؤلاء للفوز بثقة الإمبراطور الجديد لإكتساب تفوق ديني على منافسيهم. ألف أحد هؤلاء الكهنة الرئيسيين كتاباً يحتوي على وصفة ناجعة لشراب الخلود. أدخل إلى حضرة الإمبراطور ليقوم بتجديدها له. سأل الإمبراطور الكاهن إن كان الكتاب والسر الذي يحتويه يستطيعان خدمة الجميع أو أن الإمبراطور وحده يستطيع الإستفادة منه: فإنه فقط للجلالتيكم، أجاب الكاهن، ولا يحق للعوام من الناس مثل هذه الميزة العظيمة ألا وهي الخلود.

- بما أن الأمر على هذا النحو، استأنف الإمبراطور كلامه، فأنا لا أستطيع قبول كتابك، لأنه لن ينفعي بشيء، لأنني لا أريد أن أحصل على سعادة لا يستطيع شعبي مشاركتي بها. لا أريد أية ميزة مقتصرة عليّ. خذ كتابك، واهتم من الآن وصاعداً بأمور أهم. إن الثمن الحقيقي للخلود يكمن في ممارسة الفضيلة وفعل الخير للناس والقيام بجميع الواجبات. هذا السر في تناول الجميع وسأبذل قصارى جهدي أن أستعمله.

القوانين العامة للإمبراطورية:

صدر هذا الكتاب الكبير تحت عنوان /تاي مينغ لين/ أو القوانين العامة للإمبراطورية في ظل سلالة /تامينغ/.

وصية الإمبراطور /خونغ وو/:

منذ زمن طويل، تلقيت أمر السماء لحكم الناس. إنني أحكم منذ أحد وثلاثين عاماً. لقد بذلت كل جهودي حتى لأدخل بأي شيء يتعلق بواجبي. لقد أعدت السلام للإمبراطورية وأعدت لها أبنتها القديمة، كنت دائماً مشغولاً إما بحاربة الأعداء أو بمعالجة شؤون الإمبراطورية. ليس هناك ما يدعو أن ألوم نفسي بأنني كنت كسولاً أو مهملاً. لقد عملت بكل ما في وسعي من أجل صالح الشعب، وعلى الأقل هكذا كانت دائماً نيتي وهذا مايدعوني للإعتقاد بأن شعبي راضٍ عن حسن نيتي. لم أكن شيئاً يذكر من حيث نسبي، ولم يكن عندي لا الفضائل ولا الجدارة. لقد رأيت نفسي جالساً على العرش دون أن أبحث عن ذلك بل وحتى لم أرغبه. لقد جعلت من أباطرة القرون الماضية الحكماء قدوة لي في أسلوب الحكم. لقد شعرت أنه كان ينبغي علي محاسنتهم في كل شيء، ومع ذلك فأنا مرتاح البال لأنني أعتقد أنني بذلت ما في وسعي للنجاح في ذلك. لقد بلغت الحادية والسبعين من عمري. قواي تضعف يوماً بعد يوم ويبدو أنني لن أتاخر في تأدية الضريبة للطبيعة التي يدين إليها جميع الناس. إنني أنتظر ذلك دون أي قلق.

ومن أجل أن تتمتع الإمبراطورية، لفترة طويلة، بعد وفاتي، بالمنافع التي بذلت جهدي لتوفيرها لها خلال حكمي، فلقد اخترت حفيدي /تشونغ وين/ خليفة لي. لمست أن لديه الكثير من الحصافة والحكمة واللبونة والكثير من المعارف والعلوم وأنه لايفرض الآراء. أعتقد أنه سيحكم جيداً. وأن الشعوب ستكون سعيدة في ظل حكمه. كما أنه، من جهة أخرى، ابن ولي العهد، ابني البكر وسأظلمه إن وقع اختاري على شخص آخر.

إنني أمر الأمراء والأشراف وجميع كبار الموظفين، سواء في الآداب أو في السلاح، أن يدينوا له بآيات الإحترام والإجلال التي كانوا يدينون بها لي. وأن يطيعوه في كل شيء كمليكهم الوحيد والشرعي. لتطلع الرعية على آخر نواياي وإرادتي السامية بهذا الصدد.

أريد أن يرقد جسدي بعد وفاتي في القبر الذي حضرته بنفسى. وآمل أن لا يبدل ولا يضاف ولا يقطع أي شيء من الأماكن المحيطة به. أما فيما يتعلق بالمآتم. فيجب التمسك بالمآتم التي أقيمت للإمبراطور /وتنتي/ من سلالة /هانغ/.

وخشية أن يسبب الأمراء أبنائي بعض الاضطراب إذا ماتوا جدوا مجتمعين في العاصمة بعد وفاتي مباشرة، فإني أمتنعهم جميعاً من القدوم إليها وأمرهم أن يلتزموا الهدوء كل في مكان أقطاعه والانتظار بسلام أوامر الإمبراطور الجديد الذي يتوجب عليهم اطاعته بكل الاحترام والخضوع الذين يدين بها أفراد الرعية لملكهم الشرعي.

الفصل السادس جين أو الإنسانية

الإنسان، جوهرياً، طيب، ويحمل في ذاته طبيعة سماوية
مانشيوز

مشاكل تسلسل الأحداث تاريخياً:

إن /مينغ تسو/ الذي أصبح باللاتينية /مانشيوز/ هو الأقرب إلى العقل الغربي من جميع حكماء الصين. د/لاو - تسو وكنفوشيوس/ كانا قريين من عصور السحر: أما /مانشيوز/ فهو عصري بقوة.

كان ينتمي إلى المدرسة الكنفوشيوسية، إلا أنه لم يبتعد كثيراً عن التيارات الطاوية. إن تحديد تاريخ حياة /مينغ تسو/ يبدو صعباً. فآراء الصينيين متباعدة كثيراً. فبالنسبة للبعض ربما عاش من ٣٧٢/ إلى ٢٨٨/ قبل الميلاد وبالنسبة لآخرين - ديوفاندك جيل - فإنه عاش قبل قرن من /لاو - تسو/. ولكن كيف يمكن تفسير التأثير الواضح / للاو - تسو/ على هذا الأخير؟ وكيف أن /تشوانغ - تسو/ الذي - على حسب ديوفاندك - ربما عاش في القرن الرابع، استطاع التلميح للقاء بين /كنفوشيوس ولاو تسو/ الذي تخيله بأنه جرى حوالي /٢٩٠/ قبل الميلاد؟

إن مشاكل مماثلة تبرز في النقاشات حول تأريخية الإنجيل. ولفهم التاريخ فهماً جيداً فإن الد/خياو/ أو احترام التقاليد يبقى مرجعاً جيداً. إذ من الحكمة الأخذ بعين الاعتبار الإعدادات التي تدرج طويلاً. ويرأينا، فإن طاوية /لاو - تسو/ تسبق بصورة لاجدل فيها /مانشيوز/ و/تشوانغ تسو/.

تركيب مانشيوز:

لقد حاول مانشيوز الجمع بين الطاو والد/لي/ (أو الطقوس) وذلك عبر تفسير شخصي للغاية، ولكنه عميق جداً أيضاً، لمبدأ الد/جين/ الكنفوشيوسي الذي يترجم عادة بـ/الإيثارية/ أو /الحبة الكونية/. فمن أجل تطبيق مبدأ الد/جين/ ينبغي وجود على الأقل شخصان والحرف الصيني الذي يدل على /جين/ يقدم العنصرين، العنصر (الإنساني) والعنصر (إثنان) لقد فكر /مانشيوز/ بهذه العلاقة «أنا وأنت» التي حللها في الفلسفة الغربية بوير - كوهن ستام، وغيريل مارسيل إلخ.... وقد تكون «محبة القريب»

ترجمة أكثر دقة من «الإثارية» كما أن هذا التعبير يفرض نفسه، وذلك باستبعاد أي تعبير آخر، في ترجمات الحوار الأول في كتاب /مانشيوز/. لقد استخدم /ستانيسلاس جوليان/ في ترجمته اللاتينية تعبير «الإنسانية» الذي نأخذه على عاتقنا وعلى القارئ أن يحكم في ذلك.

يقول الملك:

أيها المعلم الموقر، بما أنكم ترون أن ألف /لي/ (*) ليست مسافة طويلة جداً يجب قطعها للقدم إلى هنا، فلابد، إذن، أنكم تحملون شيئاً ما ينفع مملكتي.

أجاب مانشيوز:

- ياملك! لماذا تحدث عن المنفعة. إنسانية وعدالة ألا تكفيان؟

إذاً، أنتم، أيها الملك، سألتكم: ما الذي يفيد مملكتي؟ فإن موظفيكم ميسألون بدورهم ما الذي يفيد عائلتي؟ والموظفون الرؤوسون ما الذي يفيدنا؟ وهكذا الرؤساء والرؤوسون يتنافسون على النافع والمملكة تصبح في خطر.

ففي مملكة من عشرة آلاف عربية، ينتمي قاتل الملك إلى عائلة من ألف عربية. وفي مملكة من ألف عربية، ينتمي إلى عائلة من مئة عربية. فتملك ألف من عشرة آلاف. أو مئة من ألف، فهذا لا يستهان به. ولكن حيث تعتبر المنفعة في المقام الأول، وحيث تعتبر العدالة في المقام الأخير فإن الناس لا يشبهون أبداً من التملك بالعنف.

من عنده إنسانية لا يتخلى أو يهمل أبداً أهله. ومن فيه عدالة لا يتخلى أو لا يهمل أبداً ملكه. أيها الملك، أنتم أيضاً قولوا: إنسانية وعدالة ولا تضيقوا شيئاً، لأنه لماذا نتحدث عن المنفعة؟

مانشيوز والحوار:

يعبر /مانشيوز/ عن أفكاره، حتى أكثر من كنفوشيوس، عبر الحوار ولكن في حين أن كنفوشيوس كان يستعمل، في معظم الأحيان، الحوار كشكل بسيط فني ليعرض أفكاره. فإن /مانشيوز/ كان يحب النقاش الطويل، بالمعنى الذي نعطيه اليوم لهذا التعبير، فهو يهتم قليلاً بمرتبته محدثه ولا يحترم الملوك إلا بالقدر الذي

(*) د.إلي/ يساوي أكثر بقليل من خمسمائة متر.

يجلسون فيه حقاً أفكاره عن الملك. ولكن إن لم يحققوا مثله الأعلى، فيصفهم دون أية مراعاة، بالأوغاد والأفظاظ. وهذا ما يعطي لحواراته لهجة غير متوقعة إلى حد ما.

يحقق /مانشيزو/، في جميع تصرفاته، هذه الكلمة لـ /مارتن بوبر/:
«ليكن الإنسان إنساناً نحو الإنسان». هذه الحكمة تشبه الوصية الصينية «ليكن الأخ أخاً لأخيه».

يوجد قول مأثور صيني آخر يعبر تعبيراً جيداً عن هذه الفكرة ومفادها أن الإنسان لا يصبح حقاً إنساناً إلا بعلاقته مع كل إنسان: من يريد أن يصنع لنفسه فأساً فإنه يحتفظ بالنموذج بيده. الفأس يرمز هنا للإنسانية فكل من يرغب أن يعلم ويربي إنساناً عليه أن يحرص أن يكون أداة إنسانية. ويتعبّر آخر، ما من شيء أكثر قرباً من الإنسان سوى وعي المرء بإنسانيته.

الخير والشر:

على حسب /مانشيزو/، الإنسان يولد طيباً والاضبوط الخارجية أو الداخلية وحدها يمكن أن تجعله سيئاً. وناقشه حول هذا الموضوع مع الفيلسوف /كاو تسو/ مشهور.
كان /كاو تسو/ يقول:

السينغ «الطبيعة الإنسانية» تشبه للماء العالي. افتح صنبراً من جهة الشرق، فإذا بالماء يسيل نحو الشرق؛ افتح صنبراً من جهة الغرب فإذا بالماء يسيل نحو الغرب. إن السينغ «الطبيعة الإنسانية» لا يميز بين الخير والشر تماماً مثل الماء الذي لا يميز بين الشرق والغرب.

أجابه /مانشيزو/:

بالفعل لا يميز الماء بين الشرق والغرب ولكن ألا يميز بين العالي والمنخفض. إن طبيعة الناس تميل نحو الخير مثلما يميل الماء نحو المنخفض. لا يوجد إنسان واحد محروماً من هذا الميل للخير كما لا يوجد ماء واحد لا يسيل نحو الأسفل.

إذا ضربت الماء، تجعله ينبثق ويرتفع إلى أعلى من جبينك. وإذا وجهته بواسطة مجرور أو بين سدين بإمكانك رفعه إلى قمة جبل ولكن في هذه الحالة ليست طبيعة الماء التي تعمل وإنما قوة خارجية وكذلك الحال، عندما نرغم قوى

خارجية الناس على إرتكاب الشر، فليست طبيعتهم التي تعمل.
وهذه الآن بعض الأقوال المأثورة والمقاطع المأخوذة من آخر كتاب من كتب /
مانشيزو/ الأربعة. إننا نجد بعض مبادئ /مانشيزو/ بالنص عند كنفوشوس إلا أنها
تأخذ عنده مغزى آخر:

- الإنسان طيب جوهرياً ويحمل في ذاته طبيعة سماوية.
- يجب على الإنسان ليس فقط أن يحافظ على نقاء طبيعته السماوية وإنما مساعدة
كل إنسان، الذي هو شبيهه، على الحفاظ على طبيعته.
- جميع الناس أخوة.
- يجب أن تقوم الدولة على الطبيعة السماوية للإنسان ويجب على الملك ووزرائه
أن يسهروا، قبل كل شيء، على الحفاظ على طبيعتهم السماوية لأنه يتعلق بهم أن
يفعل الشعب نفس الشيء.
- لا الحيلة ولا المهارة تجملان للمرء أهلاً لخدمة الدولة، إنما، قبل كل شيء، قيمة ونقاء
الطبيعة الإنسانية ويدونهما كل ماتبقى يمكن أن يكون ضاراً.
- إن الدولة المثالية حيث السلام يسود على شعب سعيد أمر ممكن وذلك عندما
ينني الشعب والوزراء سلوكهم على الطبيعة السماوية التي تعمل كما تعمل السماء.
- على ظهر الأرض، كل الشر يأتي من كون الإنسان يتعد عن طبيعته الإنسانية.
- من يطمع بالثروة ليس إنسانياً، والذي يريد أن يكون إنسانياً ليس ثرياً.
- إن جميع الناس لهم قلب لا يستطيع تحمل ألم الغير.
- جوهرياً، كل شيء فينا كامل.

معباً على هذه الطروحات، كتب الفيلسوف الإنكليزي صموئيل جونسن:
لا يحلل الإنسان كما نراه من الأسفل وإنما كما نراه من الأعلى! إنطلاقاً، ليس من
واقعه الفظ، وإنما من الوعي الموجود فيه. إنه لا يصف الطبيعة الإنسانية حسب تجلياتها
الخارجية، وإنما بموجب قوانينها الأساسية وإمكاناتها وذلك مثل الفنان الحقيقي الذي
يعرف أن صورته ستكون غير أمينة إذا لم يستخرج الصورة الدائمة للأمارات العابرة
التي استطاع ملاحظتها، إن مذهبه ليس طوباوياً ولكنه يتناول مسائل جوهريّة على
طول الدرب الذي يجب أن تسلكه بخشوع وصرامة.

مساواة الناس:

عندما سأله أحد مرديه: «إن كان جميع الناس متساوين فكيف تفسرون وجود كبار وصغار؟» أجابه مانشيوز قائلاً: «أولئك الذين يتبعون الأنا الكبيرة هم أناس كبار وأولئك الذين يتبعون الأنا الصغيرة هم أناس صغار».

- «إن كان الجميع متساوين، فكيف يتبع البعض الأنا الكبيرة، ويتبع آخرون الأنا الصغيرة؟».

أجاب مانشيوز قائلاً: أعضاء العين والأذن لا تفكر الأشياء «الخارجية» تُظلمهما. عندما تلتقي الأشياء أشياء «أخرى» فإنها تتشوه. وشأن القلب هو أن يفكر. وعندما يفكر يحصل على «الحق». وعندما لا يفكر لا يحصل على «الحق». هذا مامنتنا السماء، ليقت الإنسان أولاً بكل ماعنده من كبير، حيث لا يستطيع ماعند من صغير أن يقتل من كبيره، هذا ما يفعله الرجل الكبير.

عندما يفعل الناس ما هو ليس خيراً، فإن ذلك ليس إطلاقاً بفعل مواهبهم الطبيعية، فجميع الناس في قلوبهم المار والبغض «للظلم». وجميع الناس في قلوبهم الإحترام والإجلال.

الإثارية، روح العدالة، الباقة والمعرفة، لأعطى لنا من الخارج وإنما نحملها ذاتياً من الأصل. إلا أن الناس لا يتنبهون لها. ولنا قيل: ابحث، تجد. اعمل، تفقد «الطبيعة الأصلية». إن كانت توجد فوارق كبيرة للغاية بين الناس بحيث أنها تكون عند البعض أكثر بمرتين، خمس مرات أو ألف مرة من عند الآخرين، فذلك لأن هؤلاء غير قادرين على استعمال مواهبهم الطبيعية استعمالاً كاملاً.

الإنسان العظيم هو الإنسان الذي لا يفقد قلب الطفل..

ذلك الذي سبر عمق قلبه، يعرف السينغ «الطبيعة الإنسانية»، وذلك الذي يعرف طبيعته الإنسانية يعرف السماء. فالإنسان الذي يحافظ على قلبه، ويثني طبيعته، يختم السماء. لا تفعل مالا يجب أن يفعل. لا تطمع بما لا يجب أن يطمع به. الأمر على هذا النحو وليس على نحو آخر.

السماك، هذا ما أرغبه، مخالف الدب، هذا ما أرغبه ولكن إن لم يكن بإمكانني الحصول على الإثنين معاً، فأختار مخالف الدب. والحياة هي أيضاً شيء ما أرغبه والعدالة شيء ما أرغبه وإن كان ينبغي الاختيار، فإني أتخلى عن الحياة وأكفي

بالعدالة. وهذا ما يذكركمنا مبدأ سقراط: الأفضل الموت في ظل العدالة من العيش في ظل الظلم.

فضيلة الملك:

وأخيراً إليكم هذا الحوار الجميل بين مانشيوز والملك /سوين/ ملك التسي/:

سأل الملك: ماذا يجب أن تكون فضيلة الملك؟

أجاب مانشيوز: احبوا الشعب عندئذ ما من شيء يقاوم الملك.

سأل الملك: واحد مثلي، رجل لاشيء هل يستطيع حماية الشعب؟

قال مانشيوز: تستطيعون ذلك.

حيث سأل الملك كيف تعرفون أنني أستطيع ذلك؟

مانشيوز أجاب: /خوخيه/ روى لي مايلي: كان الملك جالساً في الصالون، عندما مر أمام المدخل رجل يقود ثوراً. فسأله الملك: إلى أين تقود هذا الثور؟ أجابه الرجل: سأكرس ناقوساً بالتضحية بدمه. أمره الملك: «دعه. يؤلني ذعره. ويذكركني برجل بريء يقاد إلى الموت». أجاب الرجل: «هل يجب أن لا أكرس الناقوس؟». أجاب الملك: «هذا غير ممكن؛ استبدل الثور بخروف». قال مانشيوز لا أعرف إن كان ذلك قد حصل بالضبط على هذا النحو.

قال الملك: هكنا حدث الأمر.

قال مانشيوز: هذا القلب كان كافياً لصنع ملك. ظن الشعب بأنك تأسف لتضحية حيوان بهذا الجمال. ولكن بالنسبة لي، أعرف أنكم لم تكونوا قادرين على رؤيته يتألم.

قال الملك: هكنا كان الأمر. يوجد دائماً أناس يفكرون مثلما يفكر الشعب، /تسي/ بلد صغير ولكن لم أكن أقيم وزناً للثور وإنما تعابير ذعره هي التي لم أستطيع تحملها. كنت أرى فيه بريئاً يقاد إلى الموت. ولذلك استبدلته.

قال مانشيوز: إنكم لانتدهشون إن كان الشعب قد اعتقد أنكم متعلقون بثور، لأنكم كنتم تستبدلون حيواناً كبيراً بحيوان صغير، كيف كان بالإمكان تخمين السبب الحقيقي؟.

إن رؤية حيوان يقاد إلى الموت يؤلمك. كيف تستطيعون الإختيار بين الثور والخروف؟.

ضحك الملك وقال: بالفعل، أي قلب كان ذلك القلب؟ إنني لم أكن أتأسف على الثور بسبب قيمته ولكن استبدلته بخروف. كان الناس محقين، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ماحدث. بالقول بأنني أجد تضحيتة أمراً مؤسفاً له.

قال مانشيوز: لأضير في ذلك. كستم، رغم كل شيء، تعطون دليلاً على إنسانيتكم، كنت ترون الثور ولم تكونوا قد رأيتم بعد الخروف.. هذا هو موقف /قون تسو/ إزاء الحيوانات. إن رآها على قيد الحياة، لا يستطيع تحمل فكرة موتها. إذا سمع صرخاتها، لا يستطيع أن يقرر أكل لحومها، وهكذا كان يبقى بعيداً عن المطبخ.

هذا الحوار يذكرنا بنص الخروج القديم جداً عندما رأى /موسى/ أن الشعب قد صنع عجلاً مسبوكاً، طرح اللوحين الحجريين من يديه وكسرهما. إن الرب قد سبق وكشف له هذا الكفر. ولكن عندما كان يقترب من المعسكر. بصر الصنم والرقص. «فحمي غضبه موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل». ولكن لماذا تفجر غضبه في تلك اللحظة فقط؟ لأن موسى رأى ولأن رؤية الأشياء أحدثت فيه أثراً أعنف من أثر إعلانها. وكذلك فإن الألم الذي نراه يؤثر فينا أكثر من وصفه.

أضاف مانشيوز قائلاً:

إن كانت الحياة شيئاً أرغبه بحرارة، يوجد شيء آخر أرغبه أكثر بكثير من الحياة ولكن لأريد أن أمتلك الحياة بواسطة الظلم. الموت، هذا ما أبغضه، ولكن يوجد شيء آخر أبغضه أكثر بكثير. ولذلك ألتجئ بعض المخاطر.

إن كان لا يوجد شيء يرغبه الإنسان، من بين ما يرغبه بحرارة، أكثر من الحياة، فلماذا لا يعمل كل ما في وسعه من أجل المحافظة عليها؟ إن كان لا يوجد شيء يكرهه الإنسان، من بين كل ما يكرهه، أكثر من الموت، فلماذا لا يعمل بكل ما في وسعه لتجنب المخاطر؟

يوجد حالات يستطيع الإنسان فيها الحصول على الحياة ولكن لا يريد ذلك؛ كما يوجد حالات يستطيع الإنسان فيها تجنب الأخطار ولكن لا يحاول فعل أي شيء، من أجل ذلك.

إن كان الإنسان لا يفعل أي شيء للحفاظ على حياته، وإن كان لا يفعل أي شيء لتجنب الأخطار، فذلك لأنه يرغب شيئاً ما أضمن من الحياة لأنه يكره شيئاً بغيضاً أكثر من الموت. ليس الأجلاء وحدهم لديهم مثل هذا القلب، فجميع الناس يمتلكونه ولكن الأجلاء وحدهم يعرفون كيف لا يفقدونه.

سلة زر وقصبة حساء: إن حصلتُم عليهما، تعيشوا وإن لم تحصلوا عليهما تموتوا. إذا ماقدمناهما، بطريقة مهينة، حتى المتشردون يرفضنهما. إذا مادعستا بالأقدام حتى المسؤول لا ينحني لأخذهما.

ومع ذلك، يوجد أناس يقبلون عشرة آلاف /سونغ/ دون أن يفكروا في الأخلاق أو في العدالة؟

بماذا يمكن أن تحسن هذه الدارهم من أحوالهم؟

يوجد جمال القصور والمنازل النبيلة، يوجد الحرم والخليلات. كما يوجد الفقراء والمحتاجون من حاشيتهم يمكن أن يستفيدوا من هذه الدراهم.

في الحالة السابقة، رفضوا في حين كان الأمر يتعلق بالحياة أو الموت. ولكن يدخل الآن في الحسبان جمال القصور والبيوت الثرية، فقبلوا. عندما تعلق الأمر بالحياة أو الموت، رفضوا، ولكن عندما تعلق الأمر بأموال يمكن أن يستفيد منها الأصدقاء المحتاجون فقد قبلوا. أما كان على هؤلاء الناس أن يتصرفوا نفس التصرف في الحالتين؟ أَدْعُ هذا فقدان القلب الأصيل.

وأردف مانشيوز قائلاً: الإنسانية هي قلب الإنسان والعدالة هي طريق /الطاو/ الإنسان.

إنه لمن المحزن أن يتخلى المرء عن الطريق وأن يكف عن إتباعه وأن يفقد قلبه وأن لا يعرف أين يبحث عنه؟

إن هرب الدجاج والكلاب، ننتقل في البحث عنها، ولكن إن طار القلب لانعرف أين نبحث عنه.

أولئك الذين يريدون تشذيب شجرة، فإنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك. ولكن عندما يتعلق الأمر بتهديب شخصهم، فإنهم غير قادرين على فعل ذلك. كيف أنهم لا يشعرون إزاء شخصهم بالحلب الذي يكتونه للشجرة؟ إنه نقص في التفكير. إن طريق «كل» مذهب هو البحث عن القلب المفقود.

يحب الإنسان جميع أجزاء جسمه. وما أنه يحبها جميعاً، فإنه يفذيها كلها. لا يوجد بوصة واحدة في جلده لا يحبها، إذا لا يوجد بوصة واحدة من جلده لا يفذيها. إذا لمعرفة إن كان الإنسان طيباً أو سيئاً، فإن أفضل وسيلة هي مراقبة أي جزء من ذاته يحبه أكثر.

يحتوي جسم الإنسان على أجزاء نبيلة وديعة وأجزاء كبيرة وصغيرة. لا يمكن أن تؤذي الجزء النبل لتقوية الجزء الوضيع، فمن يغذي ماهو صغير في ذاته هو إنسان صغير، ومن يغذي بالأحرى ماهو كبير في ذاته هو إنسان كبير. لتأمل ناظر المشتل. إن أهمل عمله لكي يولي كل العناية بأشجار النخيل الحامضة والفاصلة فإنه ليس بناظر مشتل جيد.

الإنسان الذي لا يفكر إلا بالشراب والأكل يُعتبر إنساناً بائساً، لأنه يعتني بالصغير ويهمل الكبير. لقد فقد /كي/ و/تشو/ (طاغيتان طردا لقساوتهما) الإمبراطورية لأنهما فقدوا حب الشعب. أولئك الذين يفقدون حب الشعب يفقدون قلوبهم. وللغوز حب الشعب، يوجد طريق: قلب الشعب، وللغوز بالقلب، يوجد طريق: عمل ما يحب الشعب وعدم عمل ما يكره.

إن الشعب يتوجه نحو الإنسانية مثلما يسيل الماء نحو الأسفل. ومثلما تستدير الوحوش لتهرب إلى الدغل.

من يطرد السمك نحو الأعماق؟ ثعلب الماء. من يطرد الطيور الصغيرة إلى تحت الجنبات؟ الصقر. من يدفع الشعب نحو الإمبراطورين /تانغ/ و/دو/؟^(٥) /كي/ و/تشو/. إن كان بين الملوك الحاليين للإمبراطورية يوجد واحد منهم يحب الإنسانية، فإن جميع الملوك يدعون «الشعب» نحو ذلك الذي، حتى وإنه كان لا يتمنى أن يصبح ملكاً، لا يستطيع تجنب ذلك.

هكذا كان يتكلم مانشيوز فمثله مثل معلمه كنفوشيوس، كان يؤكد أن العاطفة الإنسانية أتت من تربية والدته. مثل كونفوشيوس، فقد مانشيوز والده عندما كان طفلاً ولنختتم هذا الفصل حول الإنسانية بالثناء على امرأتين اللتين تم نسيان اسميهما ولكنهما ساهمتا في تهذيب وتمدن بني البشر.

(٥) امبراطوران عادلان.

الفصل السابع
الـ/تي / أو فن العيش

الألف ميل تبدأ تحت قدميك
أو: رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة

الوحدة الجمعية:

سبق وأن تحدثنا كثيراً عن الد/تي / كنجل للطاو، ويقول تقليد قديم أن عنوان كتاب طاو تي كينغ/ يعود لكون الجزء الأول منه يعالج الد/طاو/ بينما الجزء الثاني مكرس للد/تي/.

وبالنسبة للد/تي/ أيضاً، فقد أقرحت عدة ترجمات: «الفضيلة»، «الطبع»، «السلوك الطبيعي» التي تتردد في أغلب الأحيان وكتعريف عام يرضي الطاويين والكنفوشيوسيين على حد سواء، قد يكون «فن العيش».

إن الصين بالتأكيد هي البلد الذي أعطى أكبر عدد من الأخصائيين في فن العيش. ومن الملائم هنا أن نفهم تعبير «فن العيش» بالمعنى الحرفي. قال الفيلسوف /تشوانغ تسو/، الخبير الكبير في فن العيش: «ما في الطاو يختلف عما هو في الد/تي/، إن الد/ تي/ هو التجلي الخارجي والمختلف عن الوحدة الباطنية، وهذا يعني منطقياً أن الد/تي/ هو في حد ذاته «وحدة جمعية» وحدة الفضيلة والإرادة.

يجب أن نستخدم هنا كلمة «الفضيلة» بحذر: إتنا نفهمها عادة في المعنى الأخلاقي الصرف في حين أن الد/تي/ تخص الشخص كاملاً.

كتب الصيني /بلوك/ في كتابه الجميل تحت عنوان «تشوانغ - تسو»: (من الطاو ينجم الد/تي/ «الفصيلة» إن القوة الفعالة للطاو التي تمنح الفضيلة لقلب الأشياء، إن كفت هذه القوة عن العمل للحظة واحدة، فإن العوالم تُفنى. إذاً هذه الفضيلة ليست بالمعنى الضيق للفضيلة الإنسانية، ولكنها، بالمعنى الواسع، القيمة الجوهرية «بالمعنى الذي نقول فيه، على سبيل المثال، إن الفولاذ الجيد له مزية مقاومة البرم). إنها القوة الكونية، قوة واحدة لكن متنوعة في تجلياتها، إنها جوهر الأشياء، جذرها المثالي على نحو ما.

وهكذا الد/تي/ (وبالتالي الطاو) يتجلى في الحياة الباطنية والروحانية للإنسان.. ويمكن التحدث عن البعث في /الطاو/ بالمعنى الذي يتحدث عنه الصوفيون المسيحيون

عن البعث في المسيح، إنه الحضور الرباني، القيمة الأبدية، الوعي المقدس فينا. إن من يشعر بهذا الحضور، ولو للحظة واحدة فقط، سيعرف وإلى الأبد أن هناك تقع السلامة والملاذ المتبع خارج الزمن، السعادة الأبدية.

إن من يبلغ الطاو يدرك الوحدة الباطنية لكل الأشياء ويشعر بأنه محمول بالإيقاع الكوني، وبالموجة القوية للتيار الحيائي وتصبح جميع الأشياء بالنسبة له تجليات الطاو.

«من يبلغ الطاو يمثل للمشيفة الكونية، التي هي أصل كائنه: «إذا أطلعنا أوامر ضميرنا العميق، هل سيكون هناك إنسان واحد وحيداً وبدون دليل؟». الإنسان الذي يبلغ الطاو لا يعود بحاجة إلى قانون أخلاقي مفروض من الخارج. ومثل القارب الفارغ للتروك للتيار، يعوم على الكل الكبير الذي لا يشكل معه إلا وحدة. الإنسان طيب وفاء لزعاعته العميقة، فهو يحقق ذاته في /الطاو/ مثل الزهرة التي تتفتح في الشمس. إن مارس الفضيلة، فذلك ليس على الطريقة الكنفوشوسيين الذين يهتمون دائماً بمدح الإثارية وضمير الواجب، فهو لا يملل ولا يثمرن ولا يعلم «الحكيم يحفظ بدون كلمات».

يظهر الـ/تي/ إذن كمعاداد أكثر عمقاً من الـ/جين/ إنه توحيد للسلوك الصادر عن الطاو. وعندما عرف مانشيوز الـ/جين/ كان يرسم مثلاً أعلى قريباً إلى حد من الطاو. ومن جهة أخرى، كان /تشوانغ - تسو/ يخاطب الكنفوشوسيين بالطريقة التي يخاطب فيها الكثير من نقاد الكنيسة الذين يستهدفون للمسيحية المعاشة وليس شخص للمسيح.

الشعر:

كان /تاي بي/ أو /لي بو/ أخصبائياً كبيراً في فن العيش. عاش في العصر الذهبي للشعر الصيني في عهد سلالة /تاينغ/. كان ينتمي إلى عائلة /لي/ الشهيرة التي كان ينسب إليها /لاو - تسو/. ربما جاء /تاي بي/ «النور العظيم» من أمه التي رأت في الحلم الكوكب /تاي بي/. عاش /لي بي/ حياة تشرد ولكن شعره أكسبه بسرعة شهرة واسعة النطاق. قدم إلى بلاط الإمبراطور /تشوانغ - مينغ/ الذي خصه بالإعجاب والصدقة ولكنه لم يتمتع فترة طويلة من أبهة العيش في البلاط. وسرعان ما شعر بتفاهة الحياة في البلاط. كان الإمبراطور رجلاً طيباً ولكنه ضعيف. كان يعيش تحت سيطرة زوجة محبة للملذات والبخذ، وكان يترك وزيره الأول يتلاعب به.

دخل /لي بو/ في نزاع مع الوزير الأول فتفي مع أن الإمبراطور تأسف لرحيله.
وبعد فترة من التشرد مات في منزل قريبه.
لقد أحيطت حياة /لي تاي بي/ بأسطورة تقول إنه ربما لم يمِث في منزل أحد
أقربائه ولا من المرض وإثما:

في ليلة هادئة من ليالي الخريف، كان صديقه القمر يناديه مثلما كان يفعل
عادة. ركب قارباً لتتبع مرة أخرى بنزهة على البحيرة حيث كانت تتموج
الكؤوس البيضاء لزهور اللوتس عندما كانت أخاديد الماء تلامس أوراقها العريضة.
اندفع على هذا الماء الذي يسوده ليل بهيم لكن يلاطفه ذهب القمر. تأمل الجبال
البعيدة ذات الظلال المضاءة إضاءة خفيفة التي كثيراً ما وصفها بكتابات الجميلة
وبكلمات من الدقة بحيث أن القارئ كان يراها بأعينه. في تلك الليلة الهادئة،
شرد في جمال السرمدي للمشهد واستغرق في تأمل التعددية اللامتناهية للأشكال
والألوان ودرجاتها والخطوط. استولت عليه كآبة لا توصف وأدرك الألم الكوني.
أفرغ عدة كؤوس من الخمر. أخذ المشهد يتلون بألوان تزداد قوة وفي نفس الوقت،
دبت فيه النشوة التي من المفروض أن تجلب له النسيان لعنة ساعات. كان القمر
يتمرى على البحيرة. رآه الشاعر بالقرب من القارب، كان نديه التقديم في
جلسات الشرب المنفردة. كان معه طوال ليالي عديدة عندما كان يشرب ويفكر
في أشياء كثيرة لم يقل عنها شيئاً في شعره. ناداه ودعاه للإنضمام إليه للشرب معه
كما في الماضي... لم يأت، بقي هناك تقريباً على متناول اليد في الماء الساكن.
عندئذ مال الشاعر على طرف القارب وحاول الإمساك به. بدأ يتراجع أمامه،
غطس يديه في الماء ابتعد أكثر فأكثر وباستمرار... غرق الشاعر في البحيرة
واختفى النور العظيم.

أسطورة؟ لنقل بالأحرى، رمزاً، رمز حياته وأعماله. حاول بلا هوادة بلوغ المثل
الذي لا يبلغه الناس.. وحاول فهم المعنى الخفي للأشياء التي يحجبها سر عميق. بحث
بدون جدوى وغرق في الحزن واليأس.

ولكنه رمز أيضاً، لإنسان عظيم يرغب بالخير ولكنه لم يره ويبحث عن الهدف
الحقيقي للحياة وعن مغزاها، هذا الهدف هذا المغزى كانا يفتلنا منه مثل انعكاس
القمر.

لم يكن /لي بو/ بالتأكيد ذلك السكير المرح كما يصفه القولكلور الصيني وإثما

كان، على العكس، رجلاً رصيناً. لقد شرب بالتأكيد الكثير من الخمر في حياته ولكن لينسى ولو للحظة واحدة القلق الكوني. ألف /إلي بو/ أكثر من عشرة آلاف قصيدة. لم يتكلم فيها عن أكثر ما كان يقلقه من الأمور.

قد يندهش المرء بأن يرى /إلي بو/ قد صنف في عداد الأخصائيين في فن العيش في حين أنه بحث عنه طوال حياته ولم يجده. ولكن عدم الرضى هذا يبدو علامة على إدراكه الكبير للوحدة الكونية. هذا الوعي هو ذاته الذي كان يحرمه من كل راحة قبل أن يندمج في هذه الوحدة. شرب /إلي بو/ حتى الثمالة ليس فقط الخمر وإنما الحياة نفسها. ويعتبر النقاد المرموقون بأنه أحد أكبر شعراء الشعر الغنائي في الأدب العالمي. وقارنوه /بمعمر الخيام/.

وهاتان القصيدتان له:

يشرب وحده تحت القمر

بين الزهور قنينة خمر،
أشرب وحدي دون نديم.
رافعاً كأسى أدعو القمر
مع ظله ها نحن ثلاثة،
مع أنه القمر لا يعرف الشرب.
وظلي لا يعرف إلا إتباعي
أجعلهما نديمي للحظة،
لبلوغ الفرح يجب إدراك الربيع
أغني والقمر يتزده،
أرقص وظلي يتمايل.
قبل النشوة، تمتع معاً
وعندما أسكر، تنفصل.
هكذا أرتبط بهذين الصديقين قاندي الإحساس
عندما يتظنرني القمر في السماء.

حوار في الجبل

سألوني لماذا أَسكن الجبل الأخضر،
مبتسماً، أَسكت والقلب مستريح.
عندما تسقط الزهور، عندما يمر الماء،
عالمي لم يعد عالم الناس.

من المستحيل تقريباً ترجمة الشعر. وخاصة الشعر الصيني إلى اللغات الغربية. فالقصيدة الصينية هي كل يحتوي على عمل غنائي، عمل تصويري، عمل فلسفي، إن الداتي/ (فن العيش) عند الي/ بو/ يحتوي ليس فقط على الفن الشعري ولكن على سيطرة خطية وفلسفية. ومثل كل فرد من عائلة الي/ الذي يحترم ذاته، كان نصير مذهب سلفه/ لاو- تسو/ وأعماله تثبت ذلك. كما استشهد يرموز ل/ تشوانغ- تسو/. وذكر على سبيل المثال رمز «حلم الفراشة» حيث نرى/ تشوانغ تسو/ يتساءل عندما استيقظ إن كانت الفراشة التي رآها في الحلم كانت تحمل هي الأخرى بأنها/ تشوانغ- تسو/.

كان الي/ بو/ يعيش بين الواقع والخيال باحثاً في نفس الوقت عن الحقيقة الأكثر كمالاً. شاعر كبير ولكنه كان أيضاً خطاطاً رائعاً. كان لديه عبقرية بحث الحركة السريعة في أحرف بعض قصائده القصيرة. تلك الأحرف. التي تشكل لويحات حقيقية، رسمت بدون أفعال مساعدة أو تقريباً بدونها. وغني عن القول أن ترجمة الشعر الإنطباعي عملية شاقة على وجه الخصوص.

ليلة خريف

قمر الخريف يلمع في الماء الصافي.
على بحيرة الجنوب، أقطف أوراق اللوتس.
تنصب في يياضها كما لو كانت تريد أن تكلمني.
الرجل في القارب غارق في حزنه الكبير.

يستطيع الشاعر إعداد ترجمة أكثر تفصيلاً من النص الذي تقدمه هنا بترجمة حرفية. بيد أن الأمر لا يتعلق فقط بأن يعطى التعبير الكامل بكل ماتوجي به الكلمات وحسب وإنما يتعلق الأمر أيضاً بدمج، في النص، مايوجي به المخطط التشكيلي

للقصيدة بالصينية. وفي الواقع، إن الترجمة بتصرف كبير تنطوي على مجازفة كبيرة. إلا أن بعض الشعراء الغربيين قد نجحوا بنقل كلياً بعض القصائد الصينية إلى قصائد أخرى لها قيمتها الكاملة في حد ذاتها.

وهذا مثل /لي بوا/ كتب بالنص:

درجات الشيب، قطرة ندى تتشكل
طوال الليل، تتقدم خطوة خطوة، جوارب ناعمة.
إسدل ستارة من بلور جندي.
لينغ لونغ، رؤية قمر الخريف
لينغ لونغ كلمة صوتية، وهذه ترجمة /جوديت غويث/
درج الشيب يتلأأ بالندى.
يبطء، عبر هذه الليلة الطويلة، الملكة تصعد عليه،
تاركة جواربها الشفافة ورغل ثوبا الملكي
تبلل بقطرات متألقة.
ثم عتبة الجناح، مبهورة، تتوقف
ثم تسدل ستارة الكريستال التي تسقط مثل الشلال
تحتها، يرى المرء الشمس تسطع.
وبينما كانت تيلأ القعقة الخفيفة، حزينة وحالة
طويلاً، نظرت، عبر الندى، إلى قمر الخريف يتلأأ.

لقد تصرفت الترجمة بحرية مفرطة واستخدمت جميع المعطيات التي تعطيها الأحرف. لاتعقيب على السطر الأول. وفي السطر الثاني جعلت من الملكة موضوع القصيدة ولقد نجحت في ذلك بيراعة بالتلميح لتفاصيل الزينة، وصورة الليل الطويل والخطى البطيئة صورة جيدة - الترجمة الحرفية تدل على أن الستارة التي تسدل هي ستارة من البلور الجندي. استعمل الشاعر حرفين: الماء والصفاء الحرف الثاني /تسينغ/ مؤلف بطريقة الكتابة الرمزية وذلك بالتكرار ثلاث مرات حرف «الشمس». إذن الشمس تظهر في النص وكذلك الماء.

وعندما تسدل الملكة الستارة، تلمح القمر، كل ذلك معبر عنه بـ(ستارة البلور

الجندي) التي تسقط مثل الشلال. كما أن المقطع الرابع ناجح، فالكلمة الصوتية (كينغ لونغ). قد ترجمت بهينما تهدأ التعمقة الخفيفة. ومن جهة أخرى، الحرف «وانغ» الذي يعني رأى، تأمل، ليأخذ معنى «تأمل بحزن، يامعان» الذي غالباً ما يأتي بهذا المعنى.

عالج إلي بو/ مواضيع متنوعة للغاية: أغاني في الشراب قصائد غنائية، قصائد تاريخية، أناشيد حرية وقصائد وصفية، وهذان مثلاً آخران عن حساسيته.

أفكار خريفية لزوجة جندي

ها هو الزمن الذي نرى فيه الأوراق المصفرة تترويع في الجبل.
لنصعد إلى أعلى هذا البرج حيث تمتد الرؤية بعيداً.
من جهة البحر، سحب رمادية تيسط أشكالها الممزقة.
في كل مكان، يظهر الخريف أمام أعيننا الحزينة.
قبائل التار تحتشد على حدود غويي،
بالأسف! ها هو سفير «هان» يعود عبر باب الشيب.
هل سيمردون يوماً أولئك الذين تطالب بهم الحرب؟
عطر الزهرة يتلاشى في الفراغ ورأسها يميل ويموت.

الوردة الحمراء

حزينة، ها أنا جالسة أمام النافذة،
لتطريز وسادة حريرية.
وخزت تقسي والدم القرمزي يسيل
على البياض وردة مطرزة أصبحت وردة حمراء.
أفكر فيك، أنت البعيد؛
في الحرب، أعتقد أنك أيضاً تفقد دمك.
دموع حارقة تسيل من عيني، أبكي طويلاً.
آه، أسمع حُضر حصان!

وثبت! إنه هناك! واحسرتاه
إنها ليست إلا خفقات قلبي.
وأجلس من جديد بهذن،
أطرز مزيداً من الدموع في الوسادة الحريرية،
دموع مثل اللآلئ،
حول الوردة الحمراء...

لقد أثر الفن الشعري الصيني تأثيراً عميقاً في اليابان على وجه الخصوص حيث يحترم الشعراء الوحدة التصويرية والفلسفية للقصيدة. وهذا يصلح تماماً للقصائد القصيرة... وهذه قصيدة، على سبيل المثال، لشاعر ياباني مجهول الهوية (من القرن الثامن الميلادي)، عن قصر الحياة، يقفز الشاعر من صورة إلى أخرى بلا تمهيد ودون التعبير بوضوح عن فكره، يأتي الربيع ويوقظ مشاعر متناقضة تبرزها أشجار مشمرة لم تزه بعد وتلج يزويغ في سماء ريعية. يفرد العنديل في شجرة خوخ ولكن غبار الطلع الأبيض هذا ليس بغير طلع الزهور وإنما زغب من جليل. «كمال غير منجز». الحنين للزهور. حين يتأجج في الحلم يقصن متألئء بالندى، غصن لم يعد مغطى بالثلج وإنما غصن أخضر، الرؤية البعيدة تتوضح: تفريد العنديل يتحول إلى كورس طيور كل شيء يتجدد شيا به. الكل؟ لا، لأن الشاعر نفسه - إنتقال من الصورة الشعرية إلى التأمل - يهرم سنة كل ربيع. يحل محل هذا التوتر تنفيس. إطروحة - تقبضة. تركيب - تلك هي حركة القصيدة الجيدة، فأبدية الطبيعة يقابلها قصر الحياة الإنسانية أوراق الشجر، الزهور، الثمار تعلم تطورا ثانياً غنياً بالمعاني: الأوراق وفيه، الزهور تحضر الثمار، ومن يعرف، بعد هذه الحياة، إن كانت الثمار ستنتضج؟ إن الحنين للزهور الذي يؤججه تفريد العنديل وتهيج زوابع الثلج له مغزى أعظم. الزهرة رمز الانتقال، ولكنها تعلن أيضاً عن إكمال الثمرة.

العنديل يفرد

منذ الآن، في شجرة الخوخ، العنديل يفرد،
ولكن في ألح الربيع الثلج يزويغ..
نفسى تتطلع للزهور الريعية.

مثل الزهور، الثلج ما يزال يغطي الأغصان.
 مرج الربيع الرائع! على غصن أنخضر،
 قطرة ندى تنضد لآلئها البراقة.
 عندما تغرد الطيور، الربيع يجلد شباب كل شيء
 أنا وحدي، كل سنة، أهرم.
 يقال أن الأوراق فاقلة الحس.
 ومع ذلك، وفيه تنتظركم أنتم الذين نادراً ما تأتون.
 إن قاتم للزهور! انتظري، لانسقطي من الشجرة!
 أين ستكون الثمار، إن كانت تطيع؟
 آه، الحياة على الأرض مثل الزهرة،
 في اللحظة التي أعجب بها، تمضي!

تنفس العظام:

لفهم الفن الصيني فهماً جيداً، يجب ملاحظة العلاقة بين الفن والفلسفة فبالنسبة للصينيين، كلاهما يتبعان لفن العيش. إن الد/تي / (فن العيش) هو أيضاً تجلٍ للد/ طار/.

تستعمل غالباً في مدارس الرسم الكلاسيكي عبارة الد/كي/ بدلاً من الد/تي/. يمكن ترجمة الد/كي/ بالطاقة الكونية أو الد/القوة الحيوية/. إن رياضة الد/يوغا/ التي تمارس في الصين أيضاً تهدف إلى خلق لإنسجام بين الد/كي/ الكائن البشري وبين الد/كي/ السماوي.

عرفت الد/كي/ في أشهر كتاب عن الرسم الصيني (يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد) بـ/تنفس العظام/ كان /يانغ - تسو/ يتحدث عن الد/تي/ (تنفس التيار الحيوي) وتستخدم كلمة الد/كي/ بمعنى تنفس.

ماذا يعني بالضبط «تنفس العظام»؟ حزيال وصف الرؤى التي نبأ فيها الرب بعودة بني إسرائيل من السبي إلى أرض إسرائيل: (الرب يقود النبي إلى بقعة ملأنة بالعظام اليابسة وهناك كلفة الرب بالتنبؤ على هذه العظام وبالقول لها: «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب».. في بادئ الأمر، كساها

بالعصب واللحم ولم يكن فيها بعد الروح. بعد ذلك تلقى الأمر باحضار روح من الرياح الأربع والقول لها: هي على هؤلاء الأموات ليحيوا «فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم». «حزقيال الإصحاح ٣٧ - ١» - ١٠.

يجب فهم «تنفس العظام» ضمن منظور مماثل فالأمر يتعلق بروح، بنفحة العمل الفني.

اللوحه والنحت والتصبب التذكاري، تعيش بالقدر الذي يعرف الفنان كيف يُطيعها بحيويته وإلا ظلت أشكالاً فارغة «عظام يابسة». يلج جميع كبار أساتذة الرسم على الاتحاد الضروري بين الفنان وعمله وعلى ضرورة أن يستمر الفنان بعمله وأن يعيشه قبل أن يعبر عنه.

كان /شاومينغ فو/. رسام الخيول، يظل متمدحاً على المرج ساعات وأيام كاملة وهو يراقب ويحاكي حركاتها في المرعى قبل أن ينقلها بريشته. نجد هنا الفكرة الطابوة القائلة أن الطاو يقوم على مبدأ وحيد. وضمن هذا المنظور، نفهم بصورة أفضل حلم /تشوانغ تسو/ الذي ألهم /لي بو/ بقصيدة.

هذه القصيدة تلخص عملياً المفهوم الصيني للفن.

في الحلم، /تشوانغ تسو/ أصبح فراشة
في البقطة، الفراشة أصبحت من جلد /تشوانغ تسو/
من هذين الكائنين المتناوبين من كان حقيقياً،
في هذا المجزأ أين يتناوبا الحلم والحقيقية؟
الماء، عندما تسيل نحو البحر العميق،
يعود إلى شفافيته عبر السواقي الصافية.
الرجل الذي يزرع القاوون على ضفة جون أخضر
أصبح ذات يوم ملك بلد التلال الأميرية.
هكذا تظهر الثروة والنصب عابرين!
أنت تعرف ذلك وتعرف ذلك ولا تريد أن تقر به.

إنسجام العالم الخارجي والعالم الداخلي:

يجب أن يشعر الفنان بوحدة موضوعه وذلك بالشعور بالوحدة الكونية. «كل شيء يمضي» كان يقول هيراقليط والي/بو/يقول «الحلم والحياة يتناوبان مثل التيار». ولكن هذا الإنحداد ليس إلا مظهراً من تأثير الفنان على الأشياء. أما المظهر الآخر فيمكن تسميته بـ/غرابية/. يجب على الفنان أن ينضم إلى موضوعه ولكن يجب في نفس الوقت أن لا يمتزج به. كما يجب أن يوفر لنفسه خلوة داخلية يستطيع من خلالها أن يتعد عن العالم ويذهب في الدنيا. يجب أن يكون في العالم دون أن ينتمي إليه. وبالفعل، الذي يمكن أن يكون داخل العالم ومن العالم في نفس الوقت قد لا يستطيع من هناك بلوغ الكائن. ألم يكن /لاو- تسو/ يقول: يجب أن يكون المرء خارج الحياة حتى يرى أسرارها. لأن من يوجد في الحياة لا يلاحظ منها إلا ظواهرها؟ الإنسان، عالم صغير، يجب أن يعيش بانسجام مع الكون، العالم الكبير، على أن يظل هو هو.

لذلك كان رسامو الطبيعة يضعون رجالاً على الأقل، في لوحاتهم، فالمظهر الخارجي للجسم، الجو الداخلي لهذا الشخص، يجب أن ينسجم مع البيئة حيث وضع، والحكيم، مثل الفنان الحقيقي، لا يستطيع أن يكون لا متجهاً كلياً خارج الذات، ولا منطقياً على ذاته. فعالمه الداخلي يجب أن ينسجم مع عالمه الخارجي.

المراحل الأربعة للإبداع:

منذ ذلك الزمن يجب أن ينقل شكل الإبداع الفني الأصيل المراحل الأربعة للإبداع المذكورة في الحكمة /٥١/ من الطاو تي كينغ/

الطاو يولدها،

التي/ يقيها على قيد الحياة،

العالم المادي يعطيها شكلها،

الظروف تنجزها.

هذه المراحل تشخص التحضير الروحاني للإبداع الفني. عرض الرسام /ياوتسو يانغ/ هذه المراحل على النحو التالي:

(١) يبدأ الفنان يسطر ورقه البيضاء في خلوة هادئة ومضاءة جيداً.

٢) ينتظر أن تجد روحه الهدوء وأن تأخذ تصوراته شكلها قبل أن يشرع بالعمل.

٣) يضع، بعد ذلك، في ذهنه مخططاً للمنظر الطبيعي الذي يريد رسمه ويجب عليه معرفة المكان المحدد لكل جبل ولكل شجرة.

٤) يتراجع بعد ذلك عشر خطوات ويتأمل الصورة كما صممها في تلك اللحظة فقط سيرف إن كان يستطيع رسمها أم لا.

العمل الفني يولد من الصمت والتركيز والتوازن الداخلي والموهبة.

أصول الفن الصيني:

ما يصلح للرسم يصلح أيضاً لبقية الفنون التشكيلية. وكل عمل فني جدير بهذا الاسم ينتج عن تركيز روحاني كبير بصورة مستقلة عن المادة المستعملة سواء كانت من الخشب الأكثر ابتداءً أو من العاج الأكثر نعومة. اكتشف المزارعون عظاماً في عام ١٨٩٩ في /آن - يانغ/ في شمال مقاطعة /هو - نان/ وقد تحدث عنها /هانتز/ بالعبارات التالية:

« كانت هذه العظام تحمل كتابات محفورة. اهتم بها علماء الآثار الصينيون بشغف كبير. وبالفعل، ما من شيء يثير اهتمام الصينيين الأكثر من الكتابات الأثرية. ساد، بعد فترة وجيزة، نشاط بحثي في /آن - يانغ/. ولكن، وللأسف الشديد حدثت عمليات تزوير ومع ذلك قدم الأخصائيون إلى الأماكن واستطاعوا إثبات بأنها كانت أحرف صينية قديمة.

وبعد مرور فترة طويلة، قاموا بعمليات تنقيب علمية، منتظمة نشرت نتائجها في عام ١٩٢٩. وقد حدثت مفاجأة عامة، إذ تم قراءة على بعض هذه العظام أسماء ذرية ملوك قدماء تحدث عنهم المؤرخون الصينيون، لكن كان العلماء الغربيون يجادلون في صحتها لأنهم لم يكونوا يستطيعون القبول بأن معلومات جديرة بالثقة يمكن أن تصلنا عبر كتب أعيد نسخها بصورة لامتناهية طوال قرون. كانت هذه العظام المحفورة تستخدم في ممارسات العرافة أو بصورة أكثر تحديداً، كانت تستخدم لإقامة علاقة بين الآلهة وطبقة معينة من الكهنة، كانت الأسماء المذكورة على تلك العظام العرافية تتعلق بالحقيقة الأخيرة لسلالة /سانغ/ ويعود تاريخها للحقيقة التي أقامت فيها هذه السلالة

عاصمتها في منطقة /آن - يانغ/. ولاتنقصها إلا اسمي أول وآخر ملكين من هذه السلالة. ونعرف اليوم أن اللقى التي أخرجت من القبور تعود للحقبة بين / ١٣٥٠ - ١٠٥٠ / قبل الميلاد. وحضارة /يان - يانغ/ هي حضارة مدينة مبنية على أساس الاقتصاد الزراعي.

ومن بين اللقى التي أخرجت من القبور، نلاحظ، على وجه الخصوص، كسرات من الخزف الصيني الأبيض قاس جداً ومزخرف بنقوش محفورة لا تختلف إلا اختلافاً بسيطاً عن البورسلين غير اللطلي. وتم التعرف أيضاً على كمية كبيرة من الكتابات على العظم والعاج وأنياب فيلة منقرضة (عاج مستحجر) وهذا مايدل على وجود علاقات مع الشمال الكبير والشمال الغربي وحتى علي وجود سلالات عرقية من تلك المناطق. إن نقش العاج الجميل جداً في أغلب الأحيان يزودنا بمعلومات هامة، لأن الزخارف تشكل مشاهد عيادة. إنها تشبه الزخارف التي نراها على الأواني البرونزية، ولقد استطاع علماء آثار يابانيون إعادة تكوين وعاء كامل من الكسرات المعثور عليها. وليس هناك أدنى شك، بأنه كانت تستخدم الأطباق من خشب مرصعة بكسرات من العاج بل وحتى أطباق من العاج بصورة كاملة، وذلك قبل استخدام الأواني البرونزية. بالطبع لقد تحللت الأواني الخشبية والعاجية في تربة اللوس (طمي). إلا أن البروفسور /أموهارا/ قد عثر على آثار منها. من المؤكد أن تلك الأواني الخشبية والعاجية استخدمت في عصر الأواني البرونزية. كيف كان باستطاعة الناس في تلك الحقبة أن يشتغلوا البرونز بصورة فنية جداً؟ أين تعلموا تقنية، لاتضاهي، الصب بالشمع، هنا إن لم نقل شيئاً عن انسجام الأبعاد وغنى الزخرفة وتوازن السطوح؟ كل هذا يعطي لهذه الأواني، المخصصة للعبادة، مكانة استثنائية في الفن في كل الأزمنة وعند جميع الشعوب، إن هذه الاكتشافات ليست على الإطلاق الاكتشافات الأكثر قدماً. لقد عثر على فخاريات رائعة الأناقة من عصر الحجر المصقول. إن هذه الخزفيات من العصر الحجري تعود على مايدل إلى أكثر من أربعين قرناً ولكنها تُظهر بأسلوبها هذا الاتجاه للتوازن والشكل اللذين يشكلان سمات الفن الصيني، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على النحت وفن العمارة. إن التماثيل الصغيرة، حتى وإن نُفذت بالمواد الأكثر تواضعاً، تصنف بتسمية مذهلة. إن تماثيل بود الصغيرة الخشبية تُظهر جوهر التأمل. كما أن التماثيل الهندية الحجرية بالكاد تبلغ هذا الكمال. إن المعابد الصينية تحقق انسجاماً تاماً للبيئة وذلك بإدخال أدنى التفاصيل في التوازن العضوي للكل.

الموسيقى:

أما فيما يخص الموسيقى الصينية، فلقد رأيناها في الفصل الثاني، أنها مرتبطة ارتباطاً صحيحاً برمزية /كينغ/ وذلك في نفس القدر الذي يعتمد به الانسجام الغربي على نظرية المقامات في كل مكان، نجد في الفن الصيني علاقة مباشرة بين الرمز والفكر.

/تشوانغ تسو/:

إن كان /لي يو/ أكثر الفنانين فلسفة، فإن /تشوانغ تسو/ أكثر الفلاسفة فناً. فإن كتاب «القانون الحقيقي للذنان خوا» له نفس القدر من الأهمية على الصعيدين الأدبي والفلسفي.

لقد برع في محاربة الشكلية بكثير من الدعاية والظرف عبر صور ومقارنات تثير الخيلة. كان يدي احتراماً كبيراً لـ/لاو - تسو/ ولم يكل ولم يمل في مدح مفاهيم المعلم في حين أن كنفوشيوس لم يكن يظهر في خرافاته الحكيم إلا على شكل صور كاريكاتورية.

لقد عاش /تشوانغ - تسو/ الذي لانعرف عنه شيئاً كثيراً، دون شك، في القرن الرابع قبل الميلاد. ربما رفض منصب وزير في دولة /تشيو/. كان يحقر الدسائس السياسية ولم يكن يرغب أن يكون ضحية لها. لذا فضل، كما كان يقول، أن يبقى خنوصاً قلداً سعيداً في مرحلة من أن يصبح ثوراً سميناً منثوراً للتضحية. في عام ٧٤٢ ميلادية، أخذت المدينة مسقط رأسه اسم /نان خوا/ زهرة الجنوب. لقد رسم الامبراطور /خوان - تسوانغ/، فيما بعد، بأن تجمع كتاباته وأن تُضم إلى القانون تحت عنوان /كتابات حقيقية عن بلد زهرة الجنوب/. وسوف نورد مقطعاً من هذا العمل في الفصل الأخير. ولكن ننقل الآن ثلاثة رموز تدل كيف أن /تشوانغ تسو/ كان خبيراً في مذهب /الطاو/ و/التي/. هذه الرموز تعالج العصور الأولية، الأصل الأول والحالة الأولى.

العصور الأولية:

في قرن الفضيلة السامية، لم يكونوا يولون أهمية للمعرفة ولم يكونوا يلجؤون إلى أهل الثقافة. كان الملوك مثل الأغصان العليا للأشجار وكان الشعب مثل الظلمات الخشبية. كانوا مستقيمين وعادلين دون أن يعرفوا ماهو حب العدالة كانوا يفون

بكلالهم، دون أن يعرفوا ماهو الصديق، في بساطتهم، كانوا يتعاضدون دون معرفة ماهو التضامن. لذا كانت أعمالهم لانتزك أثراً ولم يكتب تاريخهم.

الأصل الأول:

كان الرجال الحقيقيون في العصور القديمة يتكيفون مع الطبيعة ولايتدخلون أبداً بصورة اصطناعية في مجرى الأشياء. أحياء، كانوا يفضلون الحياة على الموت؛ أموات، كانوا يفضلون الموت على الحياة. كل شيء كاف في حينه، مثل الدواء. إن الكفاح ضد مجرى الأشياء، إنما هو الإرادة تدمير الذات. وهكذا الوزير /فين تشونغ/ ياتقاده مملكة /أو/ التي كانت يجب أن تزول، سبب هلاكه. لاينبغي توخي إعطاء اليوم عيناً أفضل. ولطائر الكركي قوائم أقصر. النصيب الطبيعي يناسب كل امرئ، من يعرف الاستفادة من الموارد الطبيعية يدوم دائماً ومع أن الشمس والرياح تبخر مياه الأنهار، فإنها تسيل دائماً لأن يتايعها واحتياطاتها الطبيعية تغذي مجراها. ما من شيء أكثر ثباتاً وأكثر وفاء من قوانين الطبيعة. لتسيل المياه على طول سفوح الجبال. لتسقط الأجسام الكاملة ظللالها. يجب على الإنسان أن يحذر من أن يفني نفسه بالاستعمال المفرط لما منحه الطبيعة. فالرؤية تضني العيون، والسماع يضني الأذن. والتفكير يضني العقل، وكل نشاط يبدد المال، والقول بأن البعض فقورون بالإسراف في استعمال ماتمنحه الطبيعة! أليس هذا وهم مشؤوم؟

الحالة الأولى:

إن الإنسان، الذي جسمه يحتل حيزاً صغيراً للغاية على الأرض، يبلغ السماء عبر الفضاء، إنه يعرف الوحدة الكبرى: حالة التركيز الأولى، تكاثر الكائنات، الدورة الكونية، فساحة العالم، حقيقة كل مايحتوي، حزم القوانين التي تنظمه. في البداية الطبيعة، في أعماق الطبيعة المرتكز، المبدأ الذي يظهر مزدوجاً /فين يانغ/ (القطبية) دون أن يكون ذلك حقيقة، والذي يمكن معرفته ولكن ليس بصورة كاملة. لقد توصل الإنسان لمعرفة لكثرة مابحث عنه: وبالتوسع إلى ماوراء حدود العالم. بلغ الإنسان حقيقة متعذر ادراكها، دائماً نفس الحقيقة، دائماً دون أية شائبة. هنا يكمن نجاحه الأكبر، لقد حصل عليه بالمحاكمة العقلية وبموجب يقينيات مكتسبة سابقاً حول أشياء

كانت مازال غير محققة والتي أصبحت رويداً رويداً يقينية. إن معرفة المبداهو اليقين النهائي والسامي.

ال/تي/ والحكمة الشعبية:

في الصين، لا يعتبر فن العيش خاصاً ببعض أصحاب الإمتيازات ولكنه ملك للجميع المجتمع. فالأمثال والأقوال المأثورة التي لا تحصى تشهد على الحكمة الرفيعة للشعب الذي عرف الكثير من المآسي والذي عرف الإستفادة منها. يؤمن المرء في الصين إيماناً قوياً بأن اللامتاهي الكبر يكمن في البشر ومن يعتبر الحياة فناً يعرف مع /لاو - تسو/ أنه يمكن للمرء أن يعرف العالم دون أن يخرج من منزله: «كل قطرة مطر تحتوي على الكون»، تقول الحكمة الصينية: إن من يلتزم بال/تي/ في سلوكه يكفي بالقليل: «إن شق البرتقالة له نفس طعم البرتقالة الكاملة». سيكون لديه الشجاعة بالقيام بأعمال حتى وإن كان إنجازها يجب أن يؤجل إلى المستقبل البعيد. إن جميع الذين يعرفون الشعب الصيني يعجبون بصبره وثباته. لقد ذكر /لاو - تسو/، كمثال، صبر السماء والأرض «التي تستمران أبدياً لأنهما ليستا أنانيتين».

تحت الحكمة الشعبية على الصبر بأقوال مأثورة ذات بساطة كبيرة يستطيع الجميع فهمها.

ألف ميل تبدأ تحت أقدامك.

لا يهم أن تتقدم ببطء إن كنت تتقدم.

يذكر غالباً المثل الأخير لأولئك الذين يشرعون بدراسة اللغة الصينية، وحكمة الصين القديمة.

الفصل الثامن

وووي أو الفعل بعدم الفعل

لاتشعل أي نار لاتستطيع إطفاءها

الصبر ونفاذ الصبر:

يقول مثل صيني: «من يمتطي نمرأ يخشى أن تفلأ قدمه الأرض». هذا تحذير من مغية القيام بعمليات خطيرة. إذ من الأفضل أن يجهد المرء نفسه طويلاً وأن يبلغ هدفاً مؤكداً من أن يبحث بسرعة عن هدف احتمالي. وعندما كان /كافكا/ يقول: «لقد طردنا نفاذ الصبر من الجنة، وليس نفاذ الصبر هو ما يعيدنا إليها» فإنه كان يعبر عما يشير إليه الصينيون بـ/وو وي/ (الفعل بعدم الفعل) وهو تعبير استخدمه بصورته الرئيسية (لاو - تسو) و/تشوانغ تسو/. إنه يشكل النقطة الجوهرية للفلسفة الطاوية. إن /وو - وي/ يعني حرفياً «لا تغسل». ولكن ليس هنا يكمن الجانب السلبي للفكرة. وبالفعل، فإن /وو - وي/ الذي يعلمه /لاو - تسو/ يعني الفعل بعدم الفعل. وكما رأينا في الفصل الأول، يعبر الـ/وو/ عن مقاومة أكثر شمولية من /وي/. وهذا قد يحملنا على فهم /وو - وي/ على أنه توجيه كامل. وهذا قد يكون خطأ لذا ينبغي علينا أولاً أن نفهم فهماً عميقاً كلمة /وي/.

عمل سليم وعمل غير سليم:

إن الـ/وي/ عمل يمتد تواتر الأمور. وبـ/وو - وي/ (الفعل بعدم الفعل) كان /لاو - تسو/ يعني أنه لا يجب قسر أي شيء، يوجد أناس يدفعون الأبواب عندما يجب سحبها ويسحبونها عندما يجب دفعها. و/وو - وي/ يعني «اسحب ولا تدفع»، «ادفع ولا تسحب».

اللاعنف:

إن الجميع يعرفون المصارعة اليابانية /جيجي جيسني/ وهي نظام تدريب جسدي وفي نفس الوقت فن الدفاع عن النفس بدون أسلحة أي بدون عنف. يقول /آلان. واطس/ في كتابه «آسيا والغرب»، دراسة عن درب الاعتدال: «يُهزم الخصم عندما تُرغم على

استخدم قوته ليقطعه. الماء يستسلم للسكين دون أن تستطيع قطعه. إنه منيع لأنه يستسلم. يرى /واطس/ في المصارعة اليابانية تطبيقاً للد/وو - وي/. إن المقاومة السلبية لـ/غاندي/ هي أيضاً شكل من أشكال الد/وو - وي/ إلا أنه يجب عدم المبالغة بهذه المقارنات فلاعب الجيد يريد هزيمة خصمه. وغاندي كان يريد استقلال الهند، وليس المقصود هنا باللاعنف المعنى العميق للكلمات وبالفرنسية قد يقال لـ/تراجيع من أجل أن تقفز بصورة أفضل/ وبالانكليزية «تذلل من أجل أن تفوز».

الماء والسكين:

كان /لاو - تسو/ يعني بالد/وو - وي/ شيئاً آخر. ومرة أخرى، تبين مقارنة /واطس/ هدف هذه العبارة بشكل أفضل:

«الماء يستسلم للسكين ولكنه يظل معصوماً عن الجروح».

عدم فعل أي شيء وبالتالي فعل كل شيء يجب بلوغ الهدف عن طريق اللانفعل وربما هذه ليست إلا قضية كلمات. عندما قال المسيح «لا تغلبك الشر بل اغلب الشر بالخير» فإنه يعطي كلمة «غلب» معنى مختلفاً عن المعنى الدارج. وبالنسبة له المقصود هو غلب العدو لجعل منه صديقاً. يتزع سلاحه بالتسليم وبمحبة. إنه نصر حيث يصبح المغلوب غالباً أيضاً. إن الهدف الذي يبلغه اليابانيون بالجيدو، يبلغه الغربيون بالمصارعة. ولكن ما يعنيه /لاو - تسو/ بالد/وو - وي/ والمسيح بالد/لاوتقاوموا الشر/ لا يمكن تحقيقه أبداً بالعنف. يقول المسيح في إنجيل متى - الإصحاح ٥:

«سمعت أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده.

سمعت أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبو أعداءكم. باركوا لاعينكم. أحسنوا إلى مبغضيك. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات فإنه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين». يحتوي الإنجيل على تأكيدات عديدة مماثلة.

الـاوو - وي/ روح مشتركة للمذاهب الثلاث:

إن الـاوو - وي/ هو في كل مكان في الصين. مبدأ طاوي، لقد دمج في الفلسفة الكنفوشيوسية. ولقد تأثر به /مانشيوز/ على وجه الخصوص. انظر حوار مع /كاو تسو/ حول الماء الذي يسيل نحو الأسفل الذي ذكرناه في الفصل المكرس لـ/جين/. وحتى عام ١٩١٢، كان شعار الـاوو - وي/ المرسوم بالريشة موجوداً فوق عرش التانين وهذا هو التفسير التقليدي لهذه الكتابة.

الامبراطور ينظر نحو الشمال، السلام يعم في الشمال.

الامبراطور ينظر نحو الشرق، السلام يعم في الشرق.

الامبراطور ينظر نحو الجنوب، السلام يعم في الجنوب.

الامبراطور ينظر نحو الغرب، السلام يعم في الغرب.

لقد أصبح الـاوو - وي/ (القلع بعدم الفعل) الحلقة الموحدة التيارين الروحانيين الرئيسيين في الصين. ولكن مايجدر ملاحظته أيضاً أنه أصبح الرابطة بين الطاوية والبوذية القادمة من الهند من فوق جبال هيمالايا والمتسللة إلى الامبراطورية الصينية. يؤكد مثل صيني: إن الرؤى الثلاث للعالم هي رؤيا واحدة.

توجد رسوم منقوشة تصور بكثرة /لاو - تسو/ وهو يتحدث بهلوعمع كنفوشيوس وبوذا. إن روح /اوو - وي/ توحد بينهما، وتوضحها تماماً الحكم الهندية.

لأنهن أبداً أحداً، تحمل بصير الشتائم. لاتسعى أيضاً لخسارة الغير من أجل إنقاذ جسدك الفاني. لاتدع هيجان الغير يثير غضبك ولكن بارك من يلعنك.

«مالو»

ليحتوي هدؤك غضب خصمك.

فر بقلب الشرير بفعل الخير له والبخيل بكرمك والكذاب بحبك للحقيقة.

«ماهاياتا»

العادل لا يحمل الكراهية حتى وإن مجرح يعمق،
ألا يقدم خشب الصندل عطره حتى للفولاذ الذي يقطعه؟

«سوبهاشتارفا»

أي مديح تستحقه الطيبة
أعترافاً بجميلها المتكرر؟
لا، ذلك الذي يقابل الشر بالخير وحده يعرف
الفضيلة الحقيقية.

«بانشا تانترا»

مثل النحلة التي لا تؤذي لا لون ولا عطر
الزهور، ولكنها تقطف عسلها خلال طيرانها
هكذا يجب أن يعيش الحكيم في الدنيا.
«دهاما بادا»

البوذية زين:

اتخذت البوذية في الصين أشكالاً خاصة، ثقافية وشعبية تنتمي للتيار «وسيلة النقل الكبرى (ماها ياما)»^(٣٠)، ومن بين هذه الأشكال تطورت البوذية /الزين/ التي فرضت نفسها خاصة في اليابان. و/الزين/ هي، بالفعل، الشكل الياباني للكلمة الصينية /تشان/ التي هي مشتقة من كلمة /دهيانا/. إن روح الدو - وي/ هي التي أتاحت لل/الزين/ بالجمع بين الديوغا/ الهندية والفلسفة الصينية والدين الياباني. إذن سندرس الد/الزين/ في شكلها الياباني. لأنه في اليابان يوجد أكبر عدد من أتباعها. وسيشكل ذلك فرصة للبرهنة على تأثير الثقافة الصينية على البلدان المجاورة.

يعتبر /بوذيدهارما/^(٣١) /صاحب رؤيا/ هو من أدخل الد/الزين/ إلى الصين. ربما كان معلماً تقنية تسمح بتطبيق اليوغا على العامة. إن حياته غير معروفة ويُصور غالباً بملامح

(٣٠) هدف هذا التيار تحقيق السعادة الأبدية للجميع في حين أن /هينايأ/ (وسيلة النقل الصغرى) يهدف إلى السعادة الأبدية للفردي. و(بوذيدهارما) راهب بوذي عاش في القرن السادس ميلادي.
(٣١) في الصين، يطلق عليه اسم /تانمو/.

الفيلسوف الحشن الذي يسخر بالتقاليد كافة. كما يقارن غالباً بـ/تشوانغ - تسو/ الذي يوصف في الصين بالبوذي قبل البوذية.

ثُروى أن /بوذيدهارما/ قد استدعى أمام الإمبراطور /وو/ الذي كان يرغب بلقاء الحكيم الهندي الكبير وبسماعه يقر بأعمال البر المتجزة في ظل حكمه وقال:

لقد شيدنا المعابد، ونشرنا الكتابات المقدسة وأهدينا الرهبان والراهبات، أيها الموقر هل هذه الأعمال جديرة بالتقدير؟

- ليست جديرة بالتقدير إطلاقاً! أجب /بوذيدهارما/ تشوش ذهن الإمبراطور الذي اعتبر بينه وبين نفسه أن هذا الجواب يقحم المذهب برمته. فسأله أيضاً:

ماهي إذن الحقيقة المقدسة. المبدأ الأسمى؟

- هذا المبدأ موجود في كل الأشياء، وما من شيء مقدس.

- إذن، من أنت الذي أأامي؟

- لا أعرف، يا صاحب الجلالة.

غالباً ما يصور الفنانون الصينيون واليابانيون /بوذيدهارما/ بملامح رجل ناضج ذي لحية سوداء ونظرة ثابتة وأمارات العوس. لا يعرف أي شيء عن مذهبه: ربما لم يأت بأي مذهب خاص. لم يؤثر لا في أفضاله ولا في كتاباته وإنما في شخصيته. لم يلمح في أي من أحاديثه مع مريديه - التقاليد نقلت لنا حديثين - إلى مذهبه. انتظر خليفته الروحاني، /شانغ قوانغ/ أسبوعاً كاملاً أمام المعبد حيث كان الحكيم مستغرقاً في تأملاته قبل أن يُقبل بحضرته. كانت الثلوج تتساقط، ولكن /شانغ قوانغ/ قد أقسم بينه وبين نفسه أن يسير سر /بوذيدهارما/ قاوم البرد. وما أن الانتظار كان يطول، بر ذراعه الأيسر وأرسله إلى المعلم كبرهان على أنه مستعد لجميع التضحيات من أجل الحصول على شرف قبوله في عداد مريديه. سمح له /بوذيدهارما/ أخيراً بالدخول، ولكنه لم يكشف له أي شيء واكتفى بأن عرض عليه لغزاً من المفروض، إلى حد ما، أن يفتح عينه أمام الحقيقة.

قال /شانغ قوانغ/:

- فكري ليس بسلام، هل بإمكانني أن أرجوكم، ياسيدي، أن تمنحوا السلام إلى فكري؟

- أخرج فكري حتى أستطيع أن أراه. وأمنحه السلام، قال /بوذيدهارما/.

- ولكن من المستحيل إخراج فكري.

- إذن لقد سبق وأن هدأ.

أطلق على /بوذيدهارما/ أحياناً لقب القديس بفردة حذاء واحدة. وبالفعل، بعد وفاته بقليل، أكد أحدهم أنه رآه في الجبل يسلك طريق العودة للهند، كان يسير حافي القلمين وفردة حذاء بيده. وعندما فتح قبره، لم يثر فيه إلا على فردة حذاء واحدة: بقي تسع سنوات، وما من أحد كان يعرفه، فردة حذاء بيده، وبهذه كان يعود إلى وطنه.

من الصعب أن نكون على بصيرة من هذا الجسد الخرافي، رجل مسن يصل من الهند، يُعامل بفظاظة الإمبراطور ويرفض استقبال رجل مسكين يرغب أن يصبح مريداً له والذي يعلمه يس بتر ذراعه ثم لم يسمع منه سوى كلاماً غير مفهوم. وأخيراً يعود إلى وطنه وفردة حذاء بيده. ومع ذلك، شيء مأسوئ على الفكر والفن والأدب والحياة السياسية والعسكرية للصين واليابان. اكتشف /بوذيدهارما/ شكل من أشكال الحكمة لا يمكن أن تنقل إلا إلى الذي كان محضراً لتلقيها. شكل من الحكمة لا يمكن أن تتضمن في صيغة. وحدهم الذين من أمثال /شانغ قوانغ/ الذين كانوا مستعدين لجميع التضحيات كان بمقدورهم فهمه.

أما بالنسبة للآخرين، كل هذا عبث، وجميع الخرافات الغبية التي راجت عن /بوذيدهارما/ تجمت، بوجه الاحتمال، من تلك النزعة لعلم رؤيته إلا شخصية فظة غير ملتزمة. إن جميع صور /بوذيدهارما/ تبدو كاريكاتورية، ولقد كرس جميع ميشري ال/زين/ هذه الهيئة.

لقد قاوم الطاويون أحياناً مذهب /زين/ آخذين على معلمه نكران الد/او - وي/ وعلى مبشره أنهم كانوا يدخلون العنف المزعج إليه.

لقد أصبحت البوذية /زين/ النزعة الأكثر تجريداً للحياة الروحية اليابانية. فمن حيث الجوهر، هذا المذهب أكثر أرسقراطية من البوذية /شنشي/ ومن البوذية /نيشيرين/، ويعتبره الديمقراطيون اليابانيون المسؤول عن الروح العسكرية اليابانية ويرهنون على ذلك بالانضباط الحديدي في أديرة /الزين/ الذي قد يلائم تطور الروح العسكرية. وبالفعل، لقد تلقى معظم القادة العسكريين اليابانيين تعليمهم في مدارس /الزين/، وبالتالي فمن المؤكد أن بعض معلمي /الزين/ قد شجعوا النزعة العسكرية إلا أن معظم المعلمين هم خصوم العنف. أما أولئك

الذين تربوا في الصين أو التبت، فإنهم مسالمون تماماً. لقد رُويت الكثير من القصص حول مجابهات جرت بين المحاربين اليابانيين وكهنة الزين. هذه المعارضة تحولت إلى نزاع مكشوف في بداية الحرب العالمية فقد فيها العديد من فلاسفة حياتهم.

عندما أصرت فرقة /أوزاكا/ على أن تعسكر في معبد /غا- سان/ رفض هذا المعبد تزويدها بالطعام الخاص الذي كانت تطلبه. صرخ ضابط، غاضب: «من تحسبنا؟ نحن جنود يضحون بحياتهم من أجل الوطن؟ لماذا لاتعاملونا كما يجب؟» رد عليه أحد الكهنة بقسوة نحن جنود البشرية ونريد إنقاذ الكائنات الحية، وهذا مثل آخر.

- مثل جندي يدعي /نوبي- شينغ/ أمام /هاكي- اين/ وسأله هل يوجد حقاً مثل السماء والجهنم؟

- انهار /هاكيان/ عليه بالشتائم.. فاستل المحارب سيفه، عندئذ صاح /هاكي- اين/ أه عندك سيف، بالتأكيد إنه ليس قاطعاً بما يكفي لقطع رأسي؟

وعندما رفع /نوبي/ سيفه قال /هاكي/: «ها هي أبواب جهنم تفتح؟»

تأثر /نوبي/ أشد التأثير من رباطة جأش المعلم المسن، فأعاد سيفه إلى غمده وانحنى. «هاهي أبواب السماء تفتح» قال /هاكي- اين/.

ولفهم جوهر /الزين/ يجب العودة إلى الأصول. فكلمة /زين/ جاءت من الكلمة الهندية /دهيانا/، تأمل، والد/دهيانا/ هي المرحلة السابعة من /اراديا يوغا/.

يميز /باتانجلي/ مؤسس هذه اليوغا الملكية ثمان مراحل قبل الإشراق. يقدر بوديو /دهيانا/ على التأمل حول موضوع واحد. التركيز الداخلي. أما المرحلة السادسة فهي مرحلة التركيز الخارجي. التأمل يثبت نظره على نقطة واحدة فقط: السرة رأس الأنف. ويفقد الوعي عن كل ما هو ليس بالشيء المنظور. المرحلة الثامنة والأخيرة هي /السامادهي/ أو رؤية القلب للأشياء. تتحقق هذه المرحلة الجمع بين التركيز والتأمل بإلغاء التعارض بين الخارجي والداخلي.

ترجم عادة كلمة /سامادهي/ بـ/الإستغراق/ في التأمل. إن ترتيب القيم هو على النحو التالي: تركيز، تأمل، إستغراق في التأمل.

لقد أدخل /بوديدهارما/ هذه الطريقة في التأمل إلى الصين في القرن الرابع الميلادي حيث تشوشت كلمة /دهيانا/ وأصبحت /تشيان/ وأدخل /اي- سي/ (١١٤١ - ١٢٥١) بودية /تشيان/ إلى اليابان حيث أخذت اسم البوذية /زين/.

إذن، كما رأينا، اقترنت البوذية /زين/، المنبثقة عن البوذية (ماهايانا)، في اليابان، من البوذية /هينايانا/، وهذه ليست وسيلة نقل /للفكر/ من أجل الجماهير. كما أنها لا تشكل ديناً مخصصاً حصراً للمتزهدين والناسكين.

كان المعلمون الكبار للـ/زين/ يقيمون غالباً بعض الوقت في الصين للدراسة النصوص الصينية والهندية.

لقد فرض /زين/ جيتسو، المعلم الصيني لسلالة /تانغ/ على مريديه آداب الحياة. وهذا مقطع منها:

العيش في العالم دون التعلق بأباطيله،
ذلك هو طاو النصير الحقيقي للزين.

الفضائل هي ثمرات السيطرة على الذات ولا تسقط
من السماء مثلما يسقط المطر والثلج.

التواضع هو أصل جميع الفضائل.
ليكتشفك جيرانك قبل أن تعرف نفسك.

إن قيمة العادل لا يعترف بها إلا بعد قرون.
إذن ليس من الضروري أن تكافح من أجل الاعتراف المباشر.

عش دون أن تهتم بالنتائج. الكون يسهر
على المواقب السليمة. اقض كل يوم في تأمل هادئ.

إن البوذية /زين/ تقبل الأمور كما تأتي دون وجود إرادة في التأثير على الأحداث.
وهذه قصة /ريو فوام/ الجميلة الذي يهني ابن أخيه المبسر دون أن يوجه له أي لوم
وذلك بتعليمه ثقافة ملذات الدنيا.

كان /ريو - فوام/ يكرس كل حياته لدراسة /الزين/ وذات يوم، أخبرته العائلة بأن ابن

أخيه ينفق جميع ثروته على عشيقته رغم احتياجات الأهل، وبما أن ابن الأخ هذا كان يدير ممتلكات العائلة منذ أن تنسك /أريو قوام/. طلبت العائلة من الناسك التدخل.

قام /أريو قوام/ برحلة طويلة لمقابلة ابن أخيه بدأ الشاب مسروراً لرؤية عمه ثانية بعد سنوات طويلة. قضى /أريو قوام/ الليلة في التأمل وبينما كان يستعد للرحيل قال للشاب المبتذر:

- لقد شخت الآن، ويادي ترتعشان. هل تريد مساعدتي على ربط شريط خفي.
سارع الشاب لفعل ذلك.

- شكراً، قال /أريو قوام/ بلطف. ترى ذلك. الإنسان يشيخ يوماً كل صباح، اسهر جيداً على نفسك.

ورحل، دون أن يلوح بشيء عن العشيقة وعن قلق العائلة ولكن منذ ذلك الصباح، كف ابن الأخ عن التبذير.

قال الفيلسوف الألماني /فيخت/ «إن النور الصغير يحجب النور الكبير». غالباً ما نحول الأفكار الإنسانية دون تلقي الحقيقة. إن البوذية تعلم بأنه يجب قبل كل شيء التخلص من الأفكار الخاطئة حتى تستطيع الانفتاح على الحقيقة. لقد عرف /بازامازاميا/ التبتية كلمة /سامادهي/ بالفراغ. لقد أطلق /لاو - تسو/ على نفس المفهوم اسم /الطاو/ : يجب على الإنسان أن يفرغ دماغه والمعرفة لن تساعد في ذلك. مثل عالم كبير أمام /نان - اين/ ليتعلم منه /الزين/. كان /نان - اين/ أخصائياً في طقوس الشاي. ملأ قدحاً كبيراً لرائحه مع أن القدح كان ملئاً، استمر في السكب لم يستطع الامتداد تمالك نفسه وصاح: «إن القدح أكثر من ملآن. لن تستطيع أن تضيف إليه قطرة واحدة».

رد عليه /نان - اين/: «إن هذا القدح مليء بالشاي بقدر ما هو رأسك مليء بالآراء والتكهنات، كيف أشرح لك /الزين/ إن لم تبدأ بإفراغه؟

إن /الزين/ هو فهم الأشياء كما هي. إن معرفتنا هي في أغلب الأحيان شغوية. وأننا لانفهم ما نقول. ولذلك يعلن جميع معلمي /الزين/، في أغلب الأحيان، أن الجواب خطأ ومع ذلك يعتبرونه فيما بعد جيداً بعدما يتم التفكير به من الداخل.

إن فهم الأشياء كما هي، يمكن أن يعني أيضاً قبولها كما هي وهذا ما يستخلص من الرمز الصيني التالي:

الكهف:

كان قاطع طرق، وفنان، ويخيل وحكيم يسافرون معاً. اكتشفوا كهفاً مخفية في أعماق الصخور.

صاح قاطع الطرق: «مخبأ رائع!».

قال الفنان متعجباً: «ياله من جدار من أجل لوحة جدارية!».

همس البخيل: «مكان مثالي لتخبة كنز».

واكتفى الحكيم بالقول: «ياله من كهف جميل!».

ليحاول القارئ الذي يعتقد أنه أدرك جوهر الإجابة على السؤال التالي: «ماهي الضجة التي تصنها يد واحدة؟».

إن مثل هذا السؤال يتعلق بالمنهج الخاص لمذهب الـ/زين/ يتم السعي، باستمرار، من خلاله للتعبير عن موقف بأفكار بسيطة، أفكار معبر عنها بدورها يرمز. فكاهن / الزين/ لا يحتاج إلا لصوت /آآ/ للتعبير عن قبوله للحياة أي ليحيهاها.

آ

كان /هاي - اين/ يحظى باحترام جميع جيرانه للمجيين بطهارة حياته.

وُجدت فتاة جميلة يابانية حاملة وكانت تسكن مع أهلها في منزل مجاور لمنزله أصر أهل الغاضبون على أن تبوح الفتاة باسم الأب. في بادئ الأمر رفضت التكلم. وأخيراً قالت للأهل أنه /هاكي - اين/. غضب الأهل أشد الغضب وتوجهوا لعند المعلم الذي اكتفى بالتعجب آآ.

عندما ولد الطفل. جلب الأهل الطفل لعند /هاكي - اين/ الذي فقد سمعه إثر هذه المغامرة ولكن هنا لم يقلقه إطلاقاً. اعتنى بالطفل عناية جيدة وكان الجيران يزودونه بالحليب وبكل ما هو ضروري!

وبعد مضي عام، لم يعد بمقدور الأم السيطرة على نفسها. فاعترفت لأهلها بأن الأب هو مستخدم شاب في سوق السمك.

توجه الأهل لعند /هاكي - اين/ طالبين الصفح والمغفرة وقدموا له ألف اعتذار وطلبوا منه إعادة الطفل.

«آآ» قال /هاكي - اين/ وهو يعيد الطفل.

فنون الـ/الزین/:

كل نشاط فني في اليابان يستلهم من مبدأ الشكل النقي الذي يجب أن يظهر جوهر الطبيعة: رسم، فن العمارة، زخرفة داخلية، باقات الزهور، الحدائق، حفل الشاي، مبارزة جيدو، كل هذا يظهر تذوق الأبعاد السليمة. تذوق يكشف أحد الملامح الأساسية للثقافة اليابانية: إن الفنون التي ذكرناها للتو تجمع أحياناً بعبارة واحدة /زازين/، تطبيق مبدأ الـ/الزین/، طريقة تقضي بالإبقاء متممداً كل مايجب أن يكون متحداً؛ تتجلى ضرورة التلاحم هذه في الزمان والمكان: طريقة للإبقاء متتالية الأشياء التي يجب أن تكون متتالية، ومتزامنة تلك التي يجب أن تكون مترامنة.

يجد التلاحم في الزمن تطبيقه الخاص في المبارزة. فالبارز يجب أن يتعلم أن يكون رد فعله فورياً؛ إذ يمكن أن يسبب جزء من ثانية من شرود الذهن هزيمته. فعلى الملاحم الرد بصورة محكمة على فعل الخصم دون أن يفكر بنفسه. ولذا فإن مثل هذه التمارين يمكن أن تسهم في تحرير /الأنأ/ وإلى تطهير العقل وتوفير السيطرة على السلوك. يذكر معلوماً الـ/الزین/ غالباً كمثلاً عن التلاحم في الـ/الزین/ الـ/الدين/ اللتين تصفقتان، الضجة تتبع مباشرة الحركة، ومن لا يكون رد فعله فورياً يشبه الرجل الذي يريد التصفيق بيد واحدة. ومن هنا يأتي السؤال المتعلق بالضجة التي قد تصنعها يد واحدة.

إن الـ/الزازین/ هو المحرض الخاص للاستقرارية اليابانية، ويشير إليها قانون /الساموراي/ بالتعبير «قانون الفارس» الذي يمثل حالة خاصة من /زازین/ الذي يقدم الحد الأقصى من الشكلية، إن اللاحقة. do مشتقة من كلمة طاو الصينية وتعني الدرب نجدها في كلمة /كاندو/ «المبارزة» وفي كلمة /شاتو/ (الطريق المقدس). أن تحتوي الشكلية المفرطة على أخطار جسيمة، فقد برهنت الحرب العالمية الثانية على ذلك. بيد أن الفلاسفة اليابانيين يقارنون بين الروح العسكرية اليابانية والتقنية الذرية الغربية. ففي الحالتين؛ طورت هذه التقنية للدرجة أن الإنسان قام ثم نسيانه. ولكن أن ينحرف انضباط شخصي عن هدفه الحقيقي عن طريق التربية العسكرية فذلك لا يدين /الزین/ كما لا تدين التقنية الذرية العلوم الطبيعية، وهذا يبرهن أن كل تقنية متطورة تلقي على عاتق الإنسان مسؤوليات أخلاقية جسام، ومثلما يذل المفكرون الغربيون مافي وسعهم من أجل وضع الطاقة الذرية في خدمة الإنسان، كذلك يشير اليابانيون (تايبكان، كاغاوا، إلى ضرورة جعل الـ/الزازین/ دربا يؤدي إلى الإنسانية.

هذا الرأي ليس ابن الأمس، كان أكبر الحكماء وأفضل الفنانين اليابانيين يشاركون هذا الرأي دائماً ويرون أن الـ/الزین/ بدون إنسانية يشكل إنحرافاً وإنتهاكاً لوجه بوذا.

والرمز التالي يوضح بسماحة هذه الفكرة:

بوذا ذو الأنف الأسود:

كانت راهبة /زين/ تحمل معها دائماً في كل مكان تمثالاً صغيراً مذهباً لبوذا. دخلت ذات يوم إلى معبد صغير حيث يوجد العديد من تماثيل بوذا وكل تمثال يحتل كوة خاصة. مع ذلك كانت الراهبة تصر أن لا تحرق البخور إلا أمام تمثالها للمذهب. صنعت قمعاً وبلغ الدخان تمثالها فقط. وأصبح ألف بوذا الذهبي كله أسود وهذا ماجعله قبيحاً جداً.

الصورة جميلة جداً تؤدي إلى الاستنتاج التالي: يجب أن تتوجه المحبة للجميع تحت طائلة مخالفة مبدأ البوذية بحد ذاته.

إن جميع فنون /زازين/ تحاول جعل «العلاقة غير المرئية» مرئية: إن «فن جعل العلاقة الخفية مرئية» يدعى باليابانية /يوجين/ (٥). ومع ذلك يجب عدم الوقوع في

(٥) ربما بشكل ال/ايكوبانا/ أو فن باقات الزهور التطبيق الأرهف لل/يوجين/. وعلى حسب /ماري إفريل/ «فن الزهور الياباني» ١٩٣٠. يتضمن ال/ايكوبانا/ سبعة مبادئ: ١ - يجب أن يوحي الشكل بنبذة حية. ٢ - يجب أن تذكر خطوط الشكل بالفصل الذي تعيش فيه وعلى سبيل المثال، ربح الشتاء تخفي «الغصن السمائي». ٣ - أن تذكر البراعم، والزهور والأوراق بفكرة النمو. ٤ - يجب أن تكون وحدة الباقة عضوية وأن تُنظم جميع العناصر انطلاقاً من نقطة مركزية خفية، ٥ - لا يمكن أن تقاطع الأغصان والأوراق. ٦ - يجب أن لا توضع الزهور بصورة واضحة، إنها ليست إلا تفاصيل عضوية. ٧ - يجب أن يكون عدد الأغصان فردياً.

إن اختيار الزهرة هام للغاية أيضاً. في كتابه «الحقائق اليابانية» يميز /جين هارادا/ بين أ - الأسلوب التجريدي. ب - التوازن التناظري. ت - التوازن الخفي.

تطلب التوازن الخفي أكبر سيطرة وتطلب تنظيم البيوت اليابانية أيضاً أكبر سيطرة. يلاحظ المرء أن مبادئ الفن التجريدي الياباني معروفة ومطبقة منذ قرون. فكانوا يراعون توازنات السطوح، تشبه التوازنات التي يحققها اليوم /مندران/ في /توكوناما/ (الكرات التي توضع فيها التماثيل) ومضاجع النوم.

في الأصل كان /توكونوما/ مذبح للمثل وكانت العائلة توضع فيه تمثال بوذا وكان يقدم له الزهور والبخور حيث تنبذ العائلة صباحاً ومساءً. واليوم استبدل التمثال بصورة مستطيلة وعليها توضع زهرية وسلة تحتوي على زهور.

إن فن الحقائق يجمع بين مبادئ فن العمارة ومبادئ فن باقات الزهور. في الحقيقة، يجب أن تندمج النباتات في ديكور يحتوي على تلة وسهل ومجرى ماء. وكل شجرة وكل حجر لها منزى رمزي.

الخطأ حول الرؤية. فالجوهر المتعذر التعبير عنه يظل دائماً غير معبر عنه. قال / فاليه/:

إن الـ/يوجين/ هو «تلميح» لما هو خفي، وكان شاعر ياباني يؤكد أن الـ/يوجين/ هو محاولة للتغلغل تحت السطح. وكان آخر يعرفه علي النحو التالي: الـ/يوجين/ هو رؤية الشمس وهي تغرب خلف الهضبة. الماضي قدماً داخل غابة فسيحة دون التفكير بالعودة، تتبع بالنظر، من الشاطئ، سفينة تتعد وتتوارى خلف جزر بعيدة، والحلم بمتابعة طيران الأوز البري، تلمحها ثم تتوارى في الحال داخل الغيوم.

تفسيرات تشوانغ - تسو:

رغم كل معارضنا حول تطورات الـ/الزين/ وتطبيقاته في اليابان فإن الـ/وو - وي/ قد تم تحليله بمهارة ودقة. ولقد قدم /تشوانغ - تسو/ أجمل التفسيرات له. إننا نعرف قصته عن الأم أربع وأربعين التي أرادت أن تعي حركة قوائمها فتخبطت في قوائمها... إن /تشوانغ - تسو/ هو، بدون شك، المفكر الذي حذر البشرية بقوة وبشدة ضد أخطار العقلانية المفرطة. إن النقد الذي قام به منذ خمسة وعشرين قرناً للتحليل النفسي. لم يفقد حتى يومنا هذا شيئاً من صحته، هذا النقد الذي سبق ميلاد علم النفس ويجب على المحللين النفسانيين أن يحفظونه عن ظهر قلب.

إله اللاوعي:

كان إله التحليل وإله التقدم وإله الفضول غالباً مايقومون بزيارة إله اللاوعي.. قال إله التقدم. لإله التحليل: «إننا مدينون بكل شيء لقد رأيت إله اللاوعي. يتوجب علينا أن نكافئه لجميع حسناته». أجاب إله التحليل: «لدينا جميعاً سبع حواس لتفحص العالم في حين أن إله الوعي لايملك إلا حاسة واحدة، لنعمل على إعطائه فتحات. أحدثوا، كل يوم، فتحة في إله اللاوعي. وفي اليوم السابع كان إله اللاوعي قد مات.

الـ/وو - وي/ والسياسة:

لقد بذل أباطرة الصين العظماء ما في وسعهم لكي يحكموا بالـ/وو - وي/ (الفعل

بعلم الفعل) وكان المذبح السماوي أكبر رمز للحكم لأن الإمبراطور كان يحاول هناك الاتصال بالسماء. وهناك أيضاً كان يتوجب عليه أن يسأل نفسه ويقرر إن كان قد قام بعمل ما جلب المصائب لشعبه، كان المذبح موجوداً في بكين وفي معبد السلام، الذي يمكن مقارنته بمعبد جانوس في روما والذي لم تكن تغلق أبوابه إلا في فترة السلم (لقد اعتبر الإمبراطور، أوغيست إمبراطوراً عظيماً لأن أبواب المعبد قد أغلقت ثلاث مرات خلال حكمه). كان الأباطرة الصينيون يبدلون مافي وسعهم أن يكونوا على انسجام مع مشيئة السماء بدلاً من أن يشيدوا لأنفسهم أقواس النصر. ولقد كان اختيار الشعار موحياً معبراً. ولايسعنا إلا أن نغتنب لكون حكومة الصين الشعبية قد اتخذت من معبد السلام شعاراً لها.. يعلو المعبد خمس نجوم ومؤطر بسنابل القمح بصورة ناطقة وسلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتطور شعب يواجه هذا التطور في كل لحظة ويحث لنا أن نأمل بأن يؤثر لادو - وي/ بصورة مفيدة على إدارة شؤون هذا الشعب الديموقراطي للغاية. ففي حوليات الممالك الثلاثة، نقرأ:

عندما كانت الإمبراطورية موحدة لفترة طويلة،

كانت تفكك في نهاية المطاف، وعندما عاشت

مفككة فترة طويلة، كانت تتوحد في نهاية المطاف.

إن التورات الحالية ناجمة إلى حد كبير عن انفصال الصينيتين. إن كان بالإمكان أن يصبح معبد السلام مركز سلام حقيقياً فذلك سيكون بركة للعالم أجمع وإن روح المصالحة تشع منه، وهذا ما علمه الأباطرة العظماء والحكماء الكبار.

في عام ١٨٠٢، بعد جفاف رهيب، وجه الأميراطور /كيا كينغ/ هذه الصلاة إلى السماء من أجل أن تمطر:

أنا خادم السماء، لقد وُضعت فوق البشرية، وأنا مسؤول عن الحفاظ على النظام في العالم. وإنني إذ أرتجف، أتذكر بأنني كنت سبب هذه الكارثة الرهيبة لكثرة أخطائي. وإنني إذ أحذو حذو أجدادي، يتوجب علي أن أسأل نفسي وأرى إن كنت قد أخطأت أثناء التضحيات تكبراً أو لشذوذ في سلوكي، إن كنت قد أخلت بواجباتي الإدارية أو ساهمت في يؤس الشعب وذلك بتشديد القبور أو إقامة الحدائق المكلفة أو إن كنت نم أعر إلا أذنأ صماء لتداعيات البؤساء أو شنت حروباً من أجل أن أجنني منها المنافع، ها أنا أركع وأتوسل للسماء أن تغفر لي جهلي وجنوني وأن تبعث حياتي الروحية لأن مصير أعداد لا تحصى من الأبرياء يتعلق بي، إنني رجل وحيد.

شرق وغرب:

إن مثل هذا التواضع أمثلة. لقد رأينا أن ال/وو - وي/ قد وثق الروابط بين الصين، والهند واليابان. إن التطبيق الفعال لهذا المبدأ يمكن أن يقرب الشرق والغرب. فالشرق لديه الكثير ليتعلمه من العلوم والتقنية الغربية، ولكن الغرب لديه الكثير ليتنظروه من الفلسفة الشرقية. ففي هذا المجال، كان الشرق دائماً معلماً للغرب. قال /يونغ/ إن الشرق يتوغل عبر جميع السمات ويبلغ جروح أوروبا الأكثر عمقاً، ربما يكون ذلك عدوى خطيرة ولكن ذلك يمكن أن يكون أيضاً دواء.

وفقاً للتقاليد التي نقلها /تشوانغ - تسو/، ربما يكون /لاو - تسو/ قد قال لكفوشوس:

اليوم، العدالة /بي/ ومعجة الغير /جين/ ليست إلا كلمات، إنها أفتة للقسوة وتزرع الاضطراب في القلوب، ولم يسبق لنا أن رأينا هذا القدر من العنف. فالحماسة لا تسبح لتبيض، والغراب لا يصبح نفسه ليصبح أسود، السماء مرفوعة جوهرياً، والشمس والقمر يسطمان ذاتياً والنجوم والكواكب تحتل مكانها الطبيعي والأشجار تنتمي بالطبع إلى صنفها الطبيعي..

لذا من يريد أن يبلغ /الطاو/ ومن يرفع إليه كل نفسه سيلفه بالطبع. إننا نختم هذا الكتاب عند النقطة التي بدأنا منها: الكل من الطاو والكل يعود إليه لأن /لاو - تسو/ علمنا أنه ينبغي أيضاً العودة إلى المصدر قال لجميع الناس في كل الأزمنة:

من يعرف الآخرين حكيم، ومن يعرف نفسه هو حقاً مستنير.
من يستطيع أن يقهر الآخرين قوي ومن يستطيع قهر نفسه هو حقاً قادر.

من هو نشيط لديه هدف في الحياة.
ومن لا يتعد عن طبيعته يدوم طويلاً.
من يموت جسده، ولكن روحه لا تموت.
يمتلك طول العمر الحقيقي.

.....

القهرس

٥	مقدمة المترجم
٧	تسلسل الأحداث
١١	لمحة سريعة
٣٥	الفصل الأول: الطاو (الكائن في حد ذاته)
٥٧	الفصل الثاني: اليانغ والين (السماء والأرض تتحدان)
٧٩	الفصل الثالث: الـ / يي (الملائمة أو الطبيعة الجوهرية)
٩٥	الفصل الرابع: خياو (بر الوالدين)
١٠٧	الفصل الخامس: الـ / لي (الطقوس أو آداب السلوك)
١٢٩	الفصل السادس: جين أو (الإنسانية)
١٤١	الفصل السابع: الـ / تي أو (فن العيش)
١٥٩	الفصل الثامن: ووي أو (الفعل بعمل الفعل)



حكمة الصين

لقد بزغ، من جديد، نجم الصين كدولة كبرى منذ خمسين عاماً، ومنذ ذلك الوقت، يتعاضد، يوماً بعد يوم، دورها وثقلها ونفوذها وتأثيرها على الأحداث العالمية وفي تقرير مصير الشؤون الدولية. والصين هي أكبر دولة مرشحة لأن تكون أحد أقطاب العالم الكبار في القرن القادم. فما هي القيم الكبرى والمبادئ السامية والمثل العليا التي تحكم فكر وسلوك أكثر من مليار ومئتي مليون صيني؟

إن هذا الكتاب إذ يحمل جواباً على هذا التساؤل، فهو يفتح، في نفس الوقت، نافذة على كنز من الحكمة والجمال تراكم عبر أكثر من خمسين قرناً وذلك لكل من يريد أن يعرف منه.

يتألف الكتاب من لمحة سريعة عن تاريخ الفلسفة والآداب الصينية ومن ثمانية فصول، كل فصل منها مكرس لمفهوم أساسي للثقافة الصينية العريقة: (١) الطاو أو الكائن في حد ذاته. (٢) اليانغ واليّن أو القطبية. (٣) الـي أو الملاءمة أو الطبيعة الجوهرية. (٤) الحياو أو بر الوالدين. (٥) الـدا لي أو الطقوس أو آداب السلوك. (٦) الجين أو الإنسانية. (٧) الـدا تي أو فن العيش. (٨) الـدا وو وي أو الفعل بعدم الفعل.

